أنا..والحياة

لوحة الغلاف للفنان: جوليجوس يارنوس

نرى فى هذه اللوحة الجميلة كثير من الأعمال الفنية الرائعة والتى تظهر تصوير الأشخاص داخل المنازل أو خارجها والاهتمام بكافة التفاصيل فى المستويات والزخارف والعناصر المعمارية الفريدة وكذلك الألوان المنسجمة بعضها ببعض.

صبرى عبدالواحد

أنا.. والحياة

زينب صادق



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

أنا .. والحياة

زينب صادق

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : **محمود الهندى**

الفنان : **صبرى عبدالواحد**

المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

علي سـبيل التقـديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة باصدراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كـان رهيبًا فى المكتبـة العربيـة وأن تزيد رقعة القـراءة والقـراء بل حظيت بالتـفـاف وتلهف جـمـاهيـرى على إصدارتهـا غير مسبـوق على مستـوى النشر فى العالم العربى أجمع بل أعـادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعـرفـة كـادت أن تنسى وأطلعت شبـاب مـصـر على إبداعــات عـصـر التنوير ومــا تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسـانيـة المصـرية والعـربية علـى وجـه الخصـوص ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مـختلف فروع المعرفة الإنسانيـة بالنشـر الموسوعى بعـد أن حـقـقت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعًا على الموسوعات التى أصـدرتهـا. وتـواصل إصـدارها هـذا العام إلـى جـانب الإصـدارات الإبداعـيـة والفكرية والدينيـة وغيـرهـا من السلاسل المعـروفـة وحـتى إبداعـات شبـاب الأقـاليم وجـدت لهـا مكاناً هذا العـام فى «**مكتبـة الأسرة**» ..سوف يذكر شباب هذا الجـيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

تقديم

نحن كتّاب مجلة صباح الخير الذين عاصرنا الفنان الرسام والكاتب الراحل حسن فؤاد كنا نطلق عليه «الأب الروحي». فقد كان يراقب أعمالنا ويرشدنا إلى الطريق العملي الذي يناسبنا. حتى في السنوات التي لم يرأس فيها تحرير المجلة، والسنوات التي ابتعد فيها عنا، كان دائماً معنا. يراقب أعمالنا عن بُعد. يحمسنا. يؤنبنا. يهنئنا. يعاتبنا.

في عام ١٩٧٣ وكان رئيساً لتحرير المجلة طلب مني أن أكتب عاموداً أسبوعياً، قلت له لابد أنه لاحظ ميلي الأدبي وتفضيلي كتابة القصة عن التحقيق الصحفي أو المقال. دار بيننا حوار طويل. كان لا يلقي علينا أوامر بأفكاره. كان يحمسنا لنتبنى فكرته بالحوار.. وسألني: من أين أحصل على موضوعات قصصي؟! أجبته: من الحياة.. صمت قليلاً وقال ببساطة اكتبي الباب تحت عنوان: «أنا والحياة».. سألته: ماذا أكتب؟! أجابني: كل ما أقابله في الحياة. كُتب أقرأها. ناس أقابلها. أفكار جيدة. تأملات.. أي شيء.. وكل شيء.. بجانب القصص التي أفضل كتابتها. جعلني أشعر بالحماس والمسئولية. وبعد أن قرأ ما كتبته. هنأني. وطلب مني الاستمرار في كتابة هذا الباب طوال عمري.

وقد بدأت في كتابة منذ عام ١٩٧٣. وتطور من عامود في صفحة. إلى صفحة كاملة. إلى صفحتين.. إنني دائماً أتذكر. وأذكر الأستاذ العظيم حسن فؤاد الذي أرشد قلمي إلى الطريق الصحيح في العمل الصحفي الذي كنت حائرة فيه. بين المقال والقصة والرواية والأحاديث فقد جمع لي كل ذلك تحت عنوان: «أنا والحياة».

وفي هذا الكتاب اخترت نماذج قليلة من كتاباتي في هذا الباب أرجو أن تُفيد القارىء..

بالحب والعرفان بالجميل أهدي هذا الكتاب إلى روح الأب الروحي أستاذنا الفنان حسن فؤاد.

زينب صادق

الجزء الأول

أنا.. و

الحب.. الصداقة.. السعادة

أحبك.. عندما أحب نفسي

قالت إنها أصبحت تكره نفسها ، فقد فشلت في علاقة حب ، تركها حبيبها وتزوج أخرى ، وتزوجت هي أيضاً عن إعجاب متبادل ، وباعترافها فزوجها أفضل كثيراً من الذى أحبته وخذلها ، والمشكلة التى تعيش فيها هى الخوف ، الخوف أن يتركها زوجها ، تتعامل معه بهذا الخوف . تشتاق لحبه ، ومع ذلك تبنى حواجز بينهما ، الخلافات الصغيرة تحولها إلى مشاكل كبيرة ، لا تعبر عن احتياجاتها بصراحة ، والقلق لا يتركها ، وزاد كرهها لنفسها فهى لم تعد تعرف كيف تتعامل مع الرجل ، وتعتقد أنها لم يحبها أحد ، لم يمر عام على زواجها وتفكر أن تترك زوجها قبل أن يتركها .

قلت : من الأشياء المهمة التى يجب أن نعرفها قبل أن نحب ونتزوج هى قدرتنا على حب أنفسنا ، وهذا شىء بعيد تماماً عن الأنانية ، إذا شعرنا أننا محبوبون لدى أنفسنا ، وبأن لدينا قيمة ومؤهلون لخوض التجربة ، تكون لدينا المنابع الداخلية التى تؤهلنا لحب شخص آخر ، ونستطيع أن نقدر حقوق الآخرين ، ولا نستغلهم كأدوات لتلبية احتياجاتنا ، نستطيع أن نتعامل معهم بطريقة ملائمة بدون استغلال أو احتياج شديد أو خوف .

إذا لم نشعر بحبنا لأنفسنا وبقدرتنا وقيمتنا فاستجاباتنا مع الآخرين تكون بمشاعر فقيرة ، سنبحث عن ناس يجعلون الحياة ملائمة لنا ، لأننا لا نستطيع أن نتلاءم معها ، ونخاف أن يتركونا

وسط الطريق، أو يعاملونا بسوء، إذا لم نشعر بحبنا لأنفسنا.. من الصعب أن نصدق حب الآخر لنا، وإذا لم نتقبل أنفسنا، كيف نتقبل أو نصدق حب الآخر لنا؟

عندما نفقد الأمان بكراهيتنا لأنفسنا، نصنع من الأخطاء الصغيرة مأساة، نسعى إلى التحكم فى الآخر ونبحث عن طرق لرفضه قبل أن يرفضنا، واحتمالات التخريب تكون بلا حدود فى العلاقة الزوجية.

سألتنى بعد هذه المحاضرة العامة التى قلتها بماذا أنصحها؟!

قلت لها إننى لا أعطى نصائح لكن يمكن أن أقول لها أن تتصرف عكس تصرفاتها السابقة مع نفسها ومع زوجها.

أن تعتنى أولاً بنفسها، تحبها ولا تقلل من شأنها، عندما تصل إلى تقدير نفسها ستستطيع أن تعبر عن حبها لزوجها، وتستطيع تبعاً لذلك أن تعبر عن احتياجاتها وما تريده منه، ستستطيع أن تستمع إليه أكثر من أن تسأله بشك أو غيرة، وأن تسمح للسعادة أن تزور حياتها فهى تغلق أمامها الباب بكل سلبيات الخوف والشك.. فهل فهمتنى؟.. ربما..

الحب فوق المرجيحة

عندما نحب، نجد في الحبيب الذى اخترناه جاذبية وحناناً وصفات جميلة، نفرح لرؤياه واهتمامه بنا، ونبنى آمالنا معه، ثم تمر بنا لحظات ثقيلة نجده ليس جذاباً كما كان، وغير محتمل فى تصرفاته وأقواله، ونرى علامات لعدم اهتمامه، ونلاحظ أنانيته وأنها ثابتة ودائمة. ونتساءل. ماذا حدث؟ هل شفينا من حب أعمى؟ أم هى لحظة من اللحظات السيئة التى تمر بكل علاقة؟ لحظة طبيعية لثورة وقتية ناتجة عن مشاعر رديئة. ثم نعود ونجده جذاباً مرة أخرى بلمسه حنونة أو تصرف مثالى، وتجتاحنا العاطفة مرة أخرى!!

هذه التقلبات العاطفية السريعة المفاجئة شائعة مثل تغييرات الجو فى كل إنسان. وشرحها يقودنا إلى الماضى منذ صحوة العقل فى الطفولة يقول العالم النفسى فرويد»: «إن الحب والكراهية لشخص واحد فى نفس الوقت هما عنصران أساسيان فى كل الارتباطات الإنسانية. وأننا مخلوقات معقدة نفسياً، فعندما ينجذب لشخص ما تبدأ فى نفس الوقت عاطفة مضادة، وهذا التضاد فى مشاعرنا يحتل مساحة كبيرة فى اللا وعى بعيداً عن الأسباب المنطقية، ويحتار الناس فى هذه العاطفة المزدوجة «الحب والكراهية فى نفس الوقت». وهى تنشأ عادة منذ الطفولة من علاقة الطفل بأمه، فالطفل دون أن يدرى يواجه صراع عميق بين الرغبة فى التحرك بعيداً عن أمه ليعتمد على نفسه والرغبة فى أن يكون محبوباً معتنى به»، ويضيف «فرويد» إن هناك دائماً ميلاً قوياً للعدوان ينشأ بجانب الحب القوى».

وهذا يبدو حقيقة خلال حياتنا إذا تأملنا علاقات الحب. فعندما نحب إنساناً اخترناه، نجد أننا من حين لآخر وبدون سبب واضح يعود إلينا الجزء السلبى من العاطفة، فيدفعنا بعيداً عن نفس الإنسان الذى نريد أن نكون معه، هذا الغضب الوقتى الذى يعترينا يخدم غرضاً نفسياً هاماً لخلق مسافة بيننا وبين من نحب، ويمنعنا من فقدان شخصيتنا، وتأرجح حالتنا النفسية من مواقفنا تجاه من نحب تعكس أيضاً شعورنا المتغير تجاه أنفسنا. «إذا كرهت نفسك يوم الثلاثاء فمن الصعب أن تحب أى أحد فى هذا اليوم». فكراهية النفس يمكن أن تكون مقبولة إذا تحولت إلى شخص آخر نهتم به.

يوجد نوع آخر من تقلب العاطفة أكثر خطورة لأنه يحوى فى داخله عدم اقتناع ورضا عن الآخر، فعلاقات الحب دائماً ليست متساوية، أحياناً يحتاج أحد طرفى العلاقة للآخر أكثر، وهو لذلك أكثر اعتماداً عليه. والاعتماد كلية على الآخر والقلق والخوف من الهجر كلها مشاعر لا يمكن أن تكون سعيدة، فنجد الطرف الذى يعتمد على الآخر كلية يبحث عن لحظات مناسة ليصب ثورة غضبه عليه، إذا وجدنا أن حالة الكراهية الوقتية تتحول إلى حالة دائمة فلابد أن نفعل شيئاً، لأن الاختباء منها ربما يؤخر الألم لكنه يوسع دائرة عدم الرضا.

عندما تنمو علاقة الحب بين اثنين بقوة خيرة يمكن أن تتحمل الارتفاعات والانخفاضات لهذه العاطفة المزدوجة التى فى كل إنسان. الحب والكراهية، لكن علينا أن نتذكر أن تأرجح الحب ليس بلا ثمن، الفكرة أن الذى كنا نحبه بالأمس تغير اليوم يمكن أن

تضايق، أو تشعرنا أننا قد أخطأنا وأن الحب الذى كنا نشعر به ما هو إلا وهم، وهذا الشك يجعلنا نشعر بوحدة وفراغ وربما يذكرنا بتجارب فاشلة سابقة، ومن ناحية أخرى يمكن أن نجرح الطرف الآخر الذى يشعر بتراجع حبنا فجأة كأننا صفعناه بدون سبب واضح.

الحب والكراهية هذه العاطفة المزدوجة فى نفوسنا، هى صدى لكل تجاربنا منذ الطفولة، ويوقظها حاجتنا لنكون مختلفين، والمحب العاقل يفهم أنه لن يحب طول الوقت، فهناك لحظات غضب تكتسحنا، على أنفسنا و على آخرين فى ماضينا، والمحب الذى لا يغضب ولا تكون له فكرة ثانية مختلفة عن الآخر، أو أيام سيئة أو لحظات باردة فهو من المحتمل أن يكون كذاباً أو مخادعاً، وحتى ترتاح عقولنا تجاه تأرجح حالتنا العاطفية، يمكننا أن نفهم أن تأرجح الحب هو انعكاس طبيعى لاستمراره، وأن العاطفة المضادة، الكراهية تتفجر من حوادث فى داخلنا، وأنها ستمر مثل الزكام العادى أو الحلم الردىء.

لماذا يخفى الرجل مشاعر الحب؟!

• البحث عن حبيب

الإنسان دائماً يبحث عن آخر يحبه، أن يكون محبوباً، ليضمه الآخر بحنان، ليحيطه بالرعاية، ليكون بالنسبة له أهم محتويات الكون، أو.. على الأقل ليكون بالنسبة له مهماً، ليزيل غربته، ليمسح دموعه وعرقه، ليسأله إذا سهر الليل عن قلقه، ليتحدث معه حديثاً متفاهماً، ليعرف ما يضايقه، وما يفرحه، ليتجنب ما يضايقه، ويحاول أن يفرحه، ويظل الإنسان يبحث عن هذا الآخر.. وعندما يجده.. آه.. عندما يجده يقول للكون: هذا الذى يحيطنى بالحنان، ويضمنى بالحب استطيع أن أفعل أى شىء من أجله.. وإذا لم يجده؟ يظل الإنسان يبحث عن هذا الآخر.. حتى إذا لم يجده!!

• أحب الحب

يوجد نوع من الناس يحبون الحب أكثر مما يحبون الحبيب، الذى يحب الحب يجيد الأحاديث الشيقة عن الحب حتى يظن المستمع أو المستمعة أنه الإنسان المناسب الذى يقدر هذه العلاقة الجميلة، معظم قصص الحب للحب لا تستمر كثيراً، مثلاً الشاب الذى يحب الحب يحتفظ بالإطار ويغير الصورة خصوصاً إذا سألته صاحبتها أن يغير إطار الحب بإطار الزواج!! الذين يحبون الحب للحب فريقان.. فريق يحب الحب فقط للهروب من المسئوليات المادية التى لا يمتلكها،

يحب.. نعم.. يتزوج.. لا.. وفريق لامتلاكه الموارد المالية، ويريد أن يستمتع بالحب مع وجوه وشخصيات مختلفة.. حتى وإن كان متزوجاً! هؤلاء الذين يحبون الحب للحب لديهم براعة فى التخطيط للوصول إليه، وإن كان تخطيطاً مزيفاً.. وهم فى علاقات حبهم لا يريدون أن يخبو بريق الحب، لذلك يستخدمون ألاعيب غير منطقية فى معاملاتهم مع الطرف الآخر ليشعلوا بريق لحب، فبدلاً من أن يسأل المحب للحب سؤالاً مباشراً للآخر ويستمع إلى إجابة وافية منه، فهو يقوم بعمل ألعاب.. مثلاً.. يسأل سؤالاً مضللاً ليقع الآخر فى خطأ الإجابة فيغضب أو يثير غيرة الآخر بحكاية مزيفة، فالغضب والغيرة يشعلان بريق لحب!! مثل هؤلاء يكونون فى معاملاتهم مثل اثنين يلعبان «الشطرنج» كل منهما يمكنه أن يرى كيف يفكر عقل الآخر بتحريك قطع الشطرنج لكنه لا يستطيع أن يعرف مشاعره.

الذين يحبون للحب فقط لا يفصحون عن مشاعرهم الحقيقية، فهم يحبون أن يظهروا فى صورة مرحة دائماً وفى مظهر جذاب، كأن مشاكل الحياة اليومية ومصاعبها لا تصيبهم.

• كانت النساء مشغولات بالحب

لأن النساء اشتركت فى الحياة العملية والسياسية بعد الرجال بقرون كثيرة، فالسؤال الذى يشغل التفكير أحياناً، ماذا كانت تفعل النساء بينما كان الرجال يصنعون روائع الفنون ويبتكرون روائع الأعمال؟! كن مشغولات بالحب، وهذه حقيقة.. كان الرجال يفكرون ويبتكرون ويؤلفون لأن النساء كن يبذلن حيويتهن

وعواطفهن لهؤلاء الرجال. كن مشغولات بالحب. والمثل الشائع فى العالم «إن وراء كل عظيم امرأة».. جاء من هذه الحقيقة.. فأعمال الرجال العظيمة بنيت فوق حب النساء وعلى حسابهن، فهن اللاتى زودن أعمال هؤلاء الرجال العظام بعواطفهن.

استفاد الرجال وبقيت النساء على الهامش قروناً طويلة.. ولتعويضهن قيل هذا المثل الشائع، وقد أشيع من زمن أن الرجال لا يأخذون الحب مأخذ الجد كما يأخذون أعمالهم، وقد أدركت النساء من زمن أن الرجال يحتاجون لحبهن لكن الأغلبية منهم يتجاهلون حاجة النساء للحب! ويفسر لنا التاريخ هذا من حكايات ضجر النساء وسخطهن على رجالهن العظماء لأنهم مشغولون دائماً بأعمالهم.

فهل مازالت النساء مشغولات بالحب بعد اشتراكهن فى الحياة العملية والسياسية والثقافية؟

قالوا إن توازن المرأة فى حياتها ونجاحها فى عملها يعتمد إلى حد كبير على توازن حياتها العاطفية.

أليس الرجل أيضاً تتوازن حياته وعمله إذا توازنت حياته العاطفية؟!

• لماذا الرجل يخفى مشاعر الحب؟!

فى بعض مجتمعات العالم خصوصاً الشرقية يتعلم الشاب منذ صغره عدم إظهار مشاعره، وبالتالى عواطفه الحقيقية، بفكرة أن إظهار المشاعر والعواطف نوع من الضعف، لذلك فهو يصنع حاجزاً

من الدفاع عن نفسه أو عن رجولته، أحياناً يكون هذا الحاجز نوعاً من الغطرسة، أو اللامبالاة.

إذا كان الشباب يظهرون عواطفهم الحقيقية ويعترفون بالحب لحبيباتهم في مجتمعات دون أخرى، فهذا ليس من طبيعة الناس في هذا المجتمع أو ذلك، فالإنسان لم يولد في مجتمع منزوعة عواطفه وفي مجتمع آخر.. لا.. وهذا يعتمد على تقاليد وعادات الناس في المجتمعات المختلفة.

التاريخ يحكى لنا أن فى مجتمع الصين القديم ظهرت العواطف وعلاقات الحب في القصص بطريقة التضليل، فالتقاليد القديمة فى الثقافة الصينية عارضت عواطف لحب واعتبرت أن الإنسان في كل ظروف حياته لابد أن يتبع عظمة الحكمة.

بينما فى تاريخ المجتمع الفرنسى القديم فى العصور الوسطى ظهرت جماعة «التروبادور» وهم الفرسان الشعراء الذين ألفوا أشعاراً عن الحب وتغنوا به، ولم يداروا حبهم لحبيباتهم بل كانوا يعلنونه لكل الناس، وإن كان معظمهم من أنصار الحب للحب.

أما فى تاريخ بلاد الإنجليز حيث عرف الرجل الإنجليزى ببرودة المشاعر، فقد ذكر التاريخ أن المرأة هى التى كانت تبدأ فى المصارحة بالحب ومطالبة الرجل به، ونعرف من تاريخ العرب أن بوح الشاب بحبه لفتاة يحرمه من الزواج منها، ربما لذلك بقيت هذه الفكرة فى ذهن الأجيال فأمتنعوا عن الاعتراف بحبهم ليس فقط بفكرة الحرمان من حبيباتهم لكن أيضاً بفكرة ضعفهم إذا اعترفوا، إذا تعلم الشاب منذ صغره أن عاطفة الحب مسئولية لن يخشى البوح بها حقيقة، بل

سيشعر أنها تضيف لرجولته ولا تنتقص منها، وتعلم المسئولية فى الحب فى السنين الأولى لتفتح الشاب يعلمه المسئولية في الحياة.

إذا قالوا إن الزواج ينهى الحب.. فالألفة تحييه، أحياناً تكون الألفة بين الزوجين طبيعية وتأتى بينهما سريعاً، أحياناً تكون بحذر وتأتى بعد فترة، وأحياناً لا تكون الألفة سبباً فى نجاح علاقة زواج، فالبعض يجدون النجاح بما يناسب ظروفهم مثل الاستقرار فى الزواج، الصحبة بين الزوجين وهما لا يحتاجان للألفة، لكن بالنسبة للكثيرين لا تكون الحياة فى الزواج مكتملة بدون الألفة.

الألفة بين الزوجين ليست هى التواجد معاً فى بيت، فى فراش، فى مشاهدة التليفزيون، وإذا كانت العواطف تتأثر بممارسة الحب فالألفة الحقيقية ليست بدنية، فهى أكثر من رد فعل العاطفة، الألفة الحقيقية تعتمد على معلومات كل منهما عن الآخر، ففى العلاقة الزوجية التى يراد لها الدوام يحاول كل من الزوجين أن ينظر إليها نظرة أبعد من الحب والجاذبية الجنسية إلى شىء أفضل، فمعرفة الزوجين لبعضهما وعن بعضهما قبل الزواج لا تكون كافية، وبعد فترة من الزواج يجدان أنهما ليسا غريبين عن بعضهما لكنهما لا يعرفان بعضهما تماماً، عندما يبدآن فى معرفة بعضهما تبدأ العلاقة العاطفية فى التعمق وتدخل العلاقة مشاعر متممة للألفة مثل مشاعر الكرم، والسخاء، واهتمام كل بالآخر والعناية به، وتأتى بعد ذلك مرحلة الألفة عندما يكون الإخلاص والصدق مع نمو العلاقة، ثم تصل الألفة إلى قوتها عندما تسقط كل الحواجز بين الزوجين، عندما ترجح الثقة على الأكاذيب والألاعيب النفسية، عندما لا تحتاج

المشاعر للاختباء، الألفة بين الزوجين تجعلهما بعيدين عن التكلف، أكثر حرية وراحة مع بعضهما وأكثر احتراماً لبعضهما، عندما تتوطد الألفة بين الزوجين يستمر الحب الذى جمعهما قبل الزواج، ويحمى العلاقة فى الظروف السيئة والمشاكل.

محبون أصحاء!

في الخمسينات من هذا القرن بدأ العلماء يلقون الضوء على طبيعة الصحة العقلية والحب والتي تحتوى أيضاً على صحة الإنسان البدنية والنفسية. قالوا إن الصحة العقلية هي المقدرة على الحب والعمل واللعب أو المرح، فالشعور بالمرح من خصائص الحب الصحي، وهذا ما أهمله العلماء الجادون قديماً، فقد كانوا يتحدثون فقط عن الاهتمام والمسئولية في الحب وجعلوا من علاقة الحب المثالية واجباً كأنها حمل ثقيل على المحب أكثر من كونها باعثة على السرور والمرح، وكان يعرف المحب بملامحه الحزينة المهمومة، وقد قال العلماء الجدد إن الحس الفكاهي هو عجلة التوازن في الشخصية.

ومازلت أتذكر عبارة سمعتها في فيلم أمريكي اجتماعي في الستينيات قالتها زوجة عن سبب طلبها الطلاق من زوجها قالت: «لم نعد نضحك معا»،.. ربما منذ ذلك الوقت تنبهت إلى أهمية المرح في علاقة الحب والزواج وتنبهت لأحاديث العلماء الجدد. لقد قالوا كلاماً تعجب له المحبون المتجهمون، مثلاً القلق ليس سمة من سمات الحب كما فهم قديماً. فكلما تعمقت علاقة الحب بين اثنين واستمرت في العلاقة الزوجية ينمو بينهما الصدق في التعبير عن النفس، أي أن يكون الفرد طبيعياً وحقيقياً ولا يحتاج إلى إخفاء شيء عن حبيبته حتى العلل الجسمانية التي يصاب بها في منتصف العمر الحب الصحي لا يوجد به غموض وأسرار على عكس ما كان

معروفاً فى لحب قديماً، علاقة الحب الصحية تجعل المحبين يعرفون بعضهم جيداً بالمزايا والنواقص ومع ذلك يستمر الحب. والمثل الشائع الذى يقول «إن الحب أعمى» لا يعترف به المحبون الأصحاء لأنهم يدركون ويعرفون نواقص أحبائهم كما يعرفون مزاياهم.

قديماً كان الرجل ينجذب للمرأة الضعيفة وهى بالتالى تنجذب للرجل القوى بفكرة تحقيق الحب المثالى، الزمن تغير ولم يعد الرجل يتحمل اعتماد المرة الكلى عليه من الناحية النفسية والعاطفية قبل المادية. واصبح تحقيق الذات الآن فى أن تحب وتكون محبوباً سواء للرجل أو للمرأة يحتاج إلى قوة لتحب وقبول لتكون محبوباً، الحب الصحى ليس مجرد شعور الفرد بالإنجذاب لآخر لكنه اجتهاد إيجابى وقوة نفسية لتنمية علاقة الحب بالاهتمام المشترك والاحترام المتبادل والمسئولية المتساوية، مثلاً، الاحترام المتبادل ليس معناه أن يخاطب كل من طرفى علاقة الحب الآخر بكلمات التبجيل لكن أن يتقبل كل منهما شخصية الآخر. ألا يحاول امتلاكه، أن يتقبله كما هو إنسان متفرد فى شخصيته، هذا هو الاحترام الفعلى للآخر، وهو بمثابة الاعتراف بأنه شخصية مستقلة بذاتها، ولا يستطيع فرد أن يحقق هذا الاحترام إلا إذا كان هو أيضاً معترفاً بأنه شخصية مستقلة بذاتها، أى محققاً لذاته، ومثل هذا الفرد لن يستغل الآخر أو يتحكم فيه أو يتجاهل أمنياته ولن يذله. هاتان الشخصيتان المنفصلتان يحتاجان لبعضهما، ليتقاربا وليكونا شريكين ورفيقين، من الخطأ أن يقول فرد لآخر إننا واحد. لا. إنهما اثنان. وإذا وافقنا على أن كل فرد يعرف نفسه أكثر مما يعرف الآخر وأنه يعزل نفسه فى قوقعته

الخاصة يمكننا أن نفهم علاقة الحب الصحية فهى تصنع جسوراً بين الناس المنفصلين عن بعضهم بعضاً ليتقاربوا وأيضاً ليتباعدوا فالتقارب الدائم بين المحبين ليس دليلاً صحة الحب بينهما. الحب الصحى يحتاج إلى تباعد المحبين أحياناً، وإذا نظرنا إلى المسئولية المتساوية فى علاقة الحب الصحية نجدها فى معناها العميق هى الاعتماد على الآخر وقت الحاجة. مثلا وقت المرض، يعتمد المريض على عناية الآخر وحمايته، وإذا كانت علاقة الحب غير صحية بين الزوجين يحدث توتر بينهما إذا مرض أحدهما: مثلاً إذا أعتقد الزوج أن رجولته فى قوته البدنية فقط إذا مرض وضعف يجد أنه فى كارثة خصوصاً إذا كانت زوجته بمثل اعتقاده.

وإذا اعتبرت الزوجة أن أنوثتها فى جاذبية جسدها أو جمالها فقط إذا مرضت وأصابها الذبول الوقتى تجد أنها فى كارثة خصوصاً إذا كانت نظرة زوجها لها فى هذا الإطار الضيق. ويحدث التوتر بين الزوجين وقت مرض أحدهما. وبصبح اعتماد المريض على الآخر عبئاً ثقيلاً لا يطيقه. المحبون الأصحاء بعيدون تماماً عن هذا الخطأ فى مفهوم الأنوثة والرجولة، وتمر فترات مرضهم فى سلام بل إن جهاز المناعة فى الجسم يزداد قوة بفعل الحب فيقاوم المرض أسرع من جهاز مناعة فى جسم صاحبه متوتر.

هؤلاء الذين يعرفون كيف يحبون ويتعاملون بطبيعية وصدق مع أحبائهم، ويواجهون المشاكل بينهم بتفتح ويحلونها بدون تعقيدات ويميلون للمرح لا شك أنهم محبون أصحاء.

صديقى الحقيقى..

بالرغم من أن الحياة اليومية فى العمل والبيت تشغلك، وبالرغم من أنك تتسلى بمشاهدة التليفزيون، وتتحدث مع أفراد أسرتك، وبالرغم من أنك تستمتع بصحبة كتاب جيد، أو بزيارة اجتماعية، إلا إنك أحياناً وبالرغم من ازدحام وقتك تشعر بحاجتك لصديق قريب، تفتقد الصحبة المقربة. وربما تبحث عنه فى دائرة أصدقائك فلا تجده، فالذين تعرفهم وتطلق عليهم أصدقاء هم مجرد زملاء عمل، أو دراسة، أو سهر، وربما تكون قد تصرفت مع أحدهم كصديق ثم وجدت تصرفاته معك بعيدة عن الصداقة، فقبل أن تتصرف مع أحد كصديق قريب، عليك أن تعرف من هم اصدقاؤك الحقيقيون، وهذه المعرفة تحتاج لذكاء ومشاعر صادقة أكثر مما تظن.

أول سؤال تسأله لنفسك هل هذه الصداقة متبادلة؟ فالصداقة طريق مزدوج وليست طريقاً لاتجاه واحد، ولا تخلط بين التبادل المادى والتبادل فى الصداقة، فالتبادل المادى بمعنى أعطيك هذا وتعطينى ذاك. تجارة، أما التبادل فى الصداقة فمشاركة مشاعر. إذا سألت نفسك هل هو دورى فى الاتصال بصديقى فلان، أو هل هو دورى فى دفع حساب المقهى أو المطعم لصديقى فهذه ليست صداقة مزدهرة. الأصدقاء لا يسجلون حسابات ولا يدينون بعضهم بعضاً بمثل هذه الأشياء، أنت تساعد أصدقاءك لأنك تهتم بهم وليس لأنك مدين لهم.

وإذا كانت الصداقة لا تستمر فهى صداقة ظاهرية تفتقد قيمة التبادلية. فأى صداقة تستحق أن نطلق عليها صداقة تحتاج للتبادلية، وتنتفى هذه التبادلية مع نوعين من الأصدقاء، الصديق الذى يعتبر نفسه محور الكون، والصديق المستغل، ومثل هؤلاء الأصدقاء نطلق عليهم أصدقاء بحكم العادة، فالصديق الذى يعتبر نفسه محور الكون، يطلبك دائماً عندما يكون فى أزمة أو مشكلة وكنوع من أداء الواجب يسألة عن أحوالك وربما لا يستمع إلى إجابتك ويحدثك مباشرة فى موضوعه، ولابد أن توافقه على أن مشكلته أو أزمته هى أصعب مشكلة فى الحياة، هذا النوع من الرجال والنساء يثير الشعور بالضجر والغضب، فهم يناجون أنفسهم دائماً ولا يستمعون إليك، وأنت تريد أن تكون صديقاً لبعض الوقت وليس طبيباً نفسياً طوال الوقت، هذه صداقة زائفة لأنها بدون تبادل. أنت تعطى أدنك ومشاعرك ووقتك ولا يبادلك الطرف الآخر فى هذا.

أم االصديق المستغل فهو لا يطلبك إلا إذا أراد منك أن تؤدى له خدمة أو يقترض منك شيئاً وهذه صداقة مبنية على استغلال طرف واحد، وحتى إذا بادلته الاستغلال، فهذه ليست صداقة حقيقية، ويوجد نوع من الأصدقاء سواء بين الرجال أو النساء ربما تجده صديقاً ممتازاً يمكن أن يساعدك وأنت فى مشكلة أحسن من أى صديق آخر، لكنه دائماً يحبطك، يمكن أن تقابله وأنت متحمس لفكرة جيدة، أو بعد تجربة فى حياتك مدهشة، فيهز رأسه بعدم اهتمام أو يُسخف فكرتك، مثل هذا الصديق - الصديقة - يفتقد التبادل فى المشاعر المهمة فى الصداقة، يرفض مشاركتك حماسك ويفقدك معنوياتك

المرتفعة أو تفاؤلك، وبالتالى تفقد حماسك لصداقته، فمن هو صديقك الحقيقى؟ - أو من هى صديقتك الحقيقية؟ - هو الصديق الذى تتبادل معه المشاعر المختلفة، وخلفية حياتكما بتجاربها متقاربة، والقيم التى تتمسكان بها متشابهة. والصداقة تحتاج لديالوج مستمر بين الصديقين، فأحسن علاقة صداقة تذبل إذا لم تنتبه لها، فهل عرفت من هو صديقك الحقيقى؟

الصداقة المسمومة

حدثتنى عن صديقة مقربة لها. عطوفة، مهتمة بها، لكنها أصبحت كلما قابلتها تعود بشعور غير مريح، وكلما حدثتها خلال التليفون تشعر بإحباط بعد المكالمة، فهى تعرف كيف تثير شكوكها نحو الآخرين، وبحنان تلقى عليها ملاحظات تضايقها، مثل أنها زادت فى الوزن قليلاً، أو ملابسها أصبحت غير لائقة، صديقتها تحب أن تعرف عنها كل شىء، ماذا فعلت بالأمس وماذا ستفعل اليوم، ومن الذى قابلته، وماذا دار فى الحديث، ماذا ستأكل اليوم، وماذا سترتدى عند الخروج، وتغضب إذا لم تحك لها.

كان مثل هذا التدخل فى حياتها ممكناً قبل الزواج، لكن من الصعب أن تحكى لها الآن كل شىء، ففى حياتها اليومية زوج، إذا حكت لصديقتها كل شىء فلابد أن تدخل زوجها طرفاً فى الحديث، وهذا لا تحب أن تفعله، عندما تذهب صديقتها لزيارتها فهى تدور فى حجرات بيتها وتلقى ملاحظات على وضع الأثاث أو أى شىء، معها لا توجد حدود، وقد أدركت مؤخراً أن صديقتها لا تدعوها لصداقة حميمة بل هى أوقعتها فى فخ لا تدرى كيف تخرج منه.

يقول الخبراء فى علم السلوك الإنسانى، إن الصداقة المسمومة شائعة بين النساء ونادرة بين الرجال، فالمرأة عاطفية أكثر فى صداقتها، وتحكى لصديقتها أسرارها وتجد أنها تساندها وتواسيها فى هموم حقيقية ووهمية.

والميل الطبيعى لعمل صداقة سامة، إن الفرد يريد أن يخرج من داخله نماذج وتجارب محطمة من الماضى، مثل علاقة حب فاشلة، أو

زواج فاشل أو أسرة مفككة، أو الفشل فى عمل، وإذا التقى بآخر لديه نماذج وتجارب مشابهة ينشط السم فى داخله ويخرج الإثنان أسوأ ما فيهما، وهذا يحدث فى علاقات الصداقة الأكثر عاطفية.

قالت إن صديقاتها الاخريات لا يرتحن لصديقتها هذه، وزوجها يشعر بالضيق فى زيارتها لبيتهما، ولا يحب أن يتجاذب معها الأحاديث، وكلما أخبرته أنها ستقابلها يهز كتفيه بعدم ارتياح، لكنها لا تريد أن تعاديها، ففى معاداتها مخاطرة لأنها تعرف عنها وعن حياتها وعائلتها الكثير، وإذا كانت أحياناً فى وجود صديقات آخريات أو وجود زوجها تتحدث عن شيء يتعلق بسر تعرفه عنها، فماذا ستفعل إذا هى خرجت من صداقتها تماماً؟

يقول الخبراء فى علم السلوك الإنسانى، مثل معظم السموم، الصداقة المسمومة السم فيها درجات، خفيف وقوى، فإذا لم يرد الفرد الخروج تماماً من علاقة صداقة عليه أن يخرج من الجزء السام الذى يؤذيه، مثلاً لا يتحدث بأمثلة ونماذج من الماضى، ولا يتدخل فى حياة الآخر الشخصية ولا يحكى عن حياته اليومية، وإذا سمع من الصديق تعليقاً يضايقه فلا يصمت، ولتكن إجابته ساخرة، إذا تغير الفرد ولم يتغير الصديق، فعلاقة الصداقة عادة تنتهى طبيعياً، ويقول الخبراء لكى تعرف إذا كانت صداقتك مسمومة عليك أن تسأل نفسك: هل يجعلك الصديق تشعر بالقلق، اليأس، الإحباط، الاكتئاب. أو أنك عديم الفائدة فى الحياة؟! أى علاقة يمكن أن تحتوى على شعور من هذه المشاعر لبعض الوقت، وأحياناً، لكن إذا كانت هذه المشاعر تشعر بها دائماً مع صديق أو بعد مقابلة أو محادثة وتشعر بها بقوة فأعرف أنك فى صداقة مسمومة.

صداقة و.. صديقات

الصداقة لم يتغير معناها ومتطلباتها منذ قديم الزمان، وقد قسمها الفيلسوف اليوناني «أرسطو» إلى ثلاثة أنواع.. صداقة تقوم على المنفعة، وصداقة تقوم على المتعة.. وصداقة تقوم على الخير.. وهذه الأنواع الثلاثة هي المعروفة إلى الآن ببعض التفاصيل الحديثة.. صداقة المنفعة تزول بزوال المؤثر.. صداقة المتعة منها متعة السفر أو الرحلات.. الحفلات وتزول أيضاً بزوال المتعة.. ويمكن أن تتجدد بالتقاء نفس الوجوه في نفس المناسبات، وهم أصدقاء المناسبات، .. وصداقة حقيقية وهي التي تقوم على الفضائل في نفوس البشر، وقد وصف الصداقة الفيلوسف القديم «أفلاطون» بأنها علاقة خلقية تجمع بين المواطنين الأخيار في حب واحد فتؤلف بين قلوبهم، وتكون منهم مجتمعاً سليماً متماسكاً، ويؤكد قيمة الصداقة في بناء المدينة، وعلاج المجتمع الفاسد، لأن ائتلاف جماعة صغيرة من الناس يشتركون في آراء واحدة يجعلهم القلب النابض في المجتمع الجديد. ويؤكد «أرسطو» أن الصداقة الحقيقية التي تتصف بطابع الدوام والاستقرار هي التي تقوم بين الأخيار من الناس لأنهم ينشدون الخير، فالصديق الحقيقي يريد لصديقه الخير. وهذا ما يقال إلى الآن: إن الصداقة الحقيقية تتطلب الإخلاص بين الأصدقاء، تعني الالتزام الأخلاقي، تعني الأخذ والعطاء في تبادل المساعدة في الشدائد والأزمات والمشاركة في الأوقات السارة والأفراح.

أكتب هذه المقدمة قبل أن أعرض حواراً دار بينى وبين ثلاث فتيات عن معنى الصداقة، وهل هى موجودة الآن؟!

• مهما قيل عن عصرنا هذا الذى اختفت فيه المعانى الحقيقية للأشياء، وأطلق الناس على معارفهم أصدقاء تجاوزا أو تملقاً، فكل فرد يعتز بمعنى حقيقى للصداقة، يبحث عن صديق حقيقى أو يكون له صديق أو اثنان مقربان، فالإنسان يستطيع أن يعيش بدون علاقة حب مع الجنس الآخر لفترة، يستطيع أن يعيش بدون زواج لفترة، لكنه لا يستطيع أن يعيش بدون صديق، فهو الذى يساعده على تحمل الفترات الكئيبة، ويشاركه الفترات السارة.

سألتنى واحدة من الثلاث فتيات: هل معنى الصداقة أن تمتلك صديقة صديقتها؟

• هذا النوع من الصداقة قائم على «أعلى» و«أدنى» أى بين صديقة أعلى مرتبة اجتماعية أو مالية أو وظيفية، وأخرى فى مرتبة أدنى منها، وهى صداقة زائفة، فالصداقة الحقيقية تقوم بين شخصين متساويين خصوصاً من الناحية الثقافية، يشعر كل منهما بمسئوليته تجاه الآخر، وهذه المسئولية المتبادلة تبعد الصداقة عن التملك أو السيطرة، الصداقة مشاركة، وليست امتلاكاً، قالت واحدة إن الصديقة يمكن أن تعرف عن صديقتها مواطن ضعفها، ويمكن أن تستغلها بعد ذلك ضدها إذا انقلبت عليها.

• الصداقة الحقيقية تعنى الإخلاص والصدق والاستعداد لتقبل مساوىء الآخر، بدون استغلالها ضده، حكت لى الفتاة عن صديقة تعرفها من سنين منذ كانتا فى المرحلة الإعدادية إلى أن وصلتا إلى العمل فى شركة واحدة.

●ليس المهم أنك تعرفين هذه الصديقة منذ سنوات، المهم هل هي حقيقة صديقة؟! كما فهمت من حكايتك فهي ناقدة دائماً لتصرفاتك مهما كانت بسيطة، دائمة السخرية من مشاعرك مهما كانت مؤلمة، دائمة المعارضة على آرائك وأفكارك، تشعرك أنك تافهة، وأنك أدنى منها فكريا، إذا احتاجتك في شيء تطلبك، إذا لم تحتجك لا تسأل عنك.. إذا وجدت غيرك لصحبتها في مكان لا تسألك الصحبة، إذا لم تجد تسألك، كل أسرار حياتك كنت تقولينها لها، واكتشفت مؤخراً أن كل أسرار حياتها تخفيها عنك، تجرحك بآرائها واستغلال أسرارك عندها، إنها ليست صديقة حقيقية، فليس معنى الصداقة الحقيقية أنك زاملتها لسنوات عديدة ومازلت، الصديقة الحقيقية يمكن ألا تقابليها لشهور طويلة، وببساطة وسحر غريب تلتقيان، كما لو أنكما لم تتقابلا منذ الأمس فقط، الصديقة الحقيقية هي من تشعرين معها بأمان وراحة، ولا تكوني متوترة في حالة دفاع عن نفسك دائماً، هي من تشعرين بفرحة للقائها.. لا.. من تحملين هم وجودها.

سألتني واحدة أخرى من الثلاث فتيات: هل توجد صدقة حقيقية بين النساء؟

●من الأقوال الشائعة أنه لا توجد صداقة حقيقية بين النساء، فهن غيورات لا يحتفظن بالأسرار، ولا يعرفن الإخلاص في الصداقة، وصداقتهن وقتية، وهذا قول غير صحيح أن يعم كل النساء، فمن صداقات النساء تكونت الجمعيات النسائية المختلفة الخاصة بهن، أو بالنهوض بالمجتمع، وتكونت أيضاً حركات النساء التحررية في

العالم، وقد أصبح مفهوم الصداقة لدى النساء قوياً، فهن يساندن بعضهن، وأصبحت الصداقة مهمة لاستمرار حياتهن فهن لا يعتمدن تماماً على الرجل لمشاركتهن كل شيء، ولم يعد غريباً مشاهدة صحبة الصديقات فى الأماكن العامة، صداقة النساء موجودة بالرغم من أن ظروفهن فى الحياة لا تجعلهن يلتقين بانتظام، الصداقة الممتازة بينهن قريبة من الحب، إلا أنها أحياناً تبقى عن علاقات الحب مع الجنس الآخر، وأعنى بها الصداقة الحقيقية التى تقوم على الإخلاص والرعاية والمسئولية والاحترام، مثل هذه الصداقة تبقى العمر كله.

قالت واحدة من الثلاث فتيات إنها لم تعد تعرف كيف تساعد صديقة فى أزمة أو مشكلة عاطفية، فقد ساعدت إحدى صديقاتها فى حل مشكلة، والنتيجة أنها غضبت منها وخاصمتها، وساعدت أخرى برأيها فى حبيبها، ونصحتها أن تبتعد عنه، فأتهمتها بالغيرة منها، وتصالحت معه، فوجدت نفسها فى وضع حرج خصوصاً بعد ما فهمت أن رأيها فى الشاب قد وصله.

• مساعدة الصديقة فى أزمة ليس بالضرورة حل مشكلتها، المساندة غير المساعدة، وربما تفضل الصديقة المساندة أى أن تحاولى رفع معنوياتها فقط، فمن الصعب مساعدة من يرفض المساعدة، بعض الناس يفضلون حل مشاكلهم بأنفسهم خصوصاً العاطفية، لنفهم هذا، الصديق الحقيقى لابد أن يكون حساساً نحو مشاعر صديقه، خصوصاً فى مسألة طرح النصيحة، ربما النصيحة لا تساعده بل تعكر مزاجه، أو يعتبرها إهانة له، مهمة مساندة صديق أن نستمع إليه ونعبر عن اهتمامنا، وأننا موجودون لمساعدته إذا طلب المساعدة،

أحياناً يعتقد الصديق أنه يساعد صديقه أو يسانده بتبسيط مشكلته بسخرية أو نكتة، وهذا خطأ شائع لأنه يعطى انطباعاً لدى صاحب المشكلة أن صديقه غير مهتم به، وخطأ شائع أيضاً تقع فيه الصديقة إذا لجأت إليها صديقة فى مشكلة، إنها تحكى لها عن مشكلة مماثلة مرت بها وماذا حدث لها وكيف تغلبت عليها وكأنه بطريق غير مباشر تحل لها المشكلة، بينما كل مشكلة ليست بالضرورة تجد حلها من مشكلة مماثلة، فأصحاب المشاكل مختلفون.

قالت واحدة من الثلاث إن فى مجال الدراسة أو العمل خصوصاً تنشأ الصداقة بين الجنسين من الزملاء والزميلات، وتنشأ لغة واحدة متفاهمة بين العاملين فى مجال عمل واحد، فهل عندما تتزوج الفتاة أو الشاب يستغنى كل منهما عن أصدقائه وصديقاته؟

●هذه مشكلة.. يوجد رأى يقول إن عدم ترحيب الزوجة أوالزوج بأصدقاء وصديقات كل منهما يعنى أنهما أو أحدهما يشك فى إخلاص الآخر.. ورأى يقول الأفضل ابتعاد الزوجين عن الأصدقاء من الجنس الآخر بعد الزواج حتى لا يشعر أحدهما أو كلاهما بالغيرة. وأعتقد أن تعارف الزوجين على أصدقاء وصديقات كل منهما يثرى العلاقة بينهما، بإضافة هذه العلاقات الجديدة مادامت لا تحمل أى ضرر للطرفين، وقبول كل منهما لصداقات الآخر يعبر عن احترامهما لبعضهما وثقتهما أيضاً، وتقبل أو رفض كل من الزوجين أو أحدهما لأصدقاء وصديقات الآخر يرجع إلى تفكير وثقافة كل منهما، وأيضاً إلى وجود صداقة حقيقية بين الزوجين.. أو.. لا توجد.

بعض الناس لديهم القدرة على الشعور بالسعادة، إنهم يرون الجانب الإيجابى من الحياة أكثر من الجانب السلبى، حتى وإن لم يكن لديهم كل ما يريدونه، وبعض الناس لديهم كل ما يريدونه، ومع ذلك تعساء، بعض الناس لديهم الحظ ليحصلوا على وظائف ممتازة، يتزوجون طبقاً لأحلامهم يملكون المال والبيت والأنجال. ومع ذلك بعيدون عن الشعور بالسعادة. وبعض الناس لا يستمتعون بالسعادات التى تأتيهم وينشغلون بالتى بعيدة عنهم، بعض الناس يقولون إنهم سيكونون سعداء إذا حصلوا على كذا.. أو.. وصلوا إلى كذا.. ينتظرون هذه الأشياء ليسعدوا.

يمكنك أن تشترى شريحة من السعادة، أشياء تسعدك ملابسك.. أدوات منزل، أى شىء تصرف فيه نقوداً قليلة أو كثيرة يعطيك إثارة، لكن سرعان ما تختفى الإثارة وتتركك محبطاً، وجهة النظر هذه ترتبط باعتقاد أن السعادة هناك يمكن الحصول عليها بشراء هذا الشىء أو الارتباط بهذا الشخصى، وأحياناً لا يشعر الفرد بسعادة إلا إذا عامله آخر بلطف أو أحبه، أو رغبة فهل يحكم عليه بالتعاسة إذا لم يجد هذا الشخص!

وأحياناً عندما يفكر الفرد ماذا يجعله سعيداً، يفكر فى الشىء المخالف، يفكر ماذا وقف فى طريق سعادته، مثلاً، إذا كان حصل على هذه الوظيفة فى الماضى، لكان أسعد حالا، أو.. إذا كان تزوج من فتاة بعينها.. أو فتى بعينه.. لكان أسعد حالاً، بتفكيره هذا تحضره مشاعر كان يخفيها عن نفسه مثل الغضب.. الخوف.. الألم.

الاختلاف بين الذين لديهم الميل للشعور بالسعادة والذين ليس لديهم هذا الميل، ليس له دخل بما يملكون.. أو.. لا يملكون بالمعنى المادى والمعنوى.. إنه موقف. رغبة فى أن يكون الفرد سعيداً تدفعه إلى استخراج شيء ذى قيمة من لحظات عادية. وتظهر كيف يستجيب للحياة في الأوقات الجيدة، وأيضاً الرديئة، ويتأكد أنه مهما كان اليوم سيئاً فتوجد به لحظات من البهجة.

الناس السعداء فى حياتهم اليومية هم الذين يفكرون فى طرق تمنحهم أوقاتاً سعيدة. يستمعون إلى أغنية معينة.. يذهبون إلى مكان يحبونه.. يطلبون صديقاً مرحاً.. يأكلون طعاماً يفضلونه إنهم لا ينتظرون شيئاً مدهشاً أو فوق العادة ليسعدهم. ويجمعون اللحظات السعيدة التى ترفع من مستوى رضاهم. بعكس التعساء الذين ينظرون إلى قيمة ما كانوا يملكون قديماً، أو الأوقات التى كانت جميلة، ولا يستخرجون شيئاً من حاضرهم ليسعدهم.

إذا كانت السعادة هى الهدف الوحيد للفرد؛ فهذه حالة الأكثر تعاسة لأنه يكون عرضة للإحباط، عندما يفهم مثل هذا الشخص أن اللحظات السعيدة عندما تأتى يكون أكثر سعادة بالشعور بها ويكتشف أن هذه اللحظات أجمل من انشغاله فى البحث عنها.. أحياناً لا يجد الفرد الوقت لنفسه ليفكر فى ماذا يسعده، وعندما تسأله عن لحظات السعادة فى حياته ينظر إليك ببلاهة ويعيد نفس السؤال ولا يعرف له جواباً.. إذا وجد الفرد الوقت لنفسه يمكنه أن يفهم ماذا تعنى السعادة بالنسبة له، وإذا كانت فى متناول يده. أم لا.. وأخيراً فشعورنا بالسعادة للحظات من وقت لآخر فى حياتنا يعتمد على موقفنا منها وقدرتنا على استقبالها.

كن سعيداً

توصل بعض علماء النفس حديثاً بتعريف السعادة على أنها إحساس إجمالي بالخير، وليست ابتهاجاً غامراً لكنها شعور بالرضا، وهذا ليس تعريفاً جديداً، فالإنسان بحث عن السعادة منذ قديم الأزل بدون أن يعرف ماذا تكون، سعى إليها في أشياء وأفعال خيرة أو جيدة جعلته يشعر بالرضا، وجاء الفلاسفة القدامى يبحثون عن معنى السعادة في الوجود، وقال بعض فلاسفة اليونان: إن السعادة هي «الخير المطلق» وربط الفيلسوف اليوناني «أرسطو» السعادة بالحكمة، فإذا كانت اللذة زائلة والأمجاد عابرة، والثروة مهددة بالضياع، والشهرة متوقفة على الآخرين، فإن الحكمة هي وحدها الفضيلة الباقية التي ترقى بالإنسان، وعندما تحدث عن أنواع الخيرات التي يتمتع بها الإنسان، فقد قرن السعادة بخيرات النفس.

وعندما بحث عن السعادة الفيلسوف البريطاني «برتراند راسل» في النصف الأول من القرن العشرين بعد أن عاش حربين عالميتين قال: «إن السعادة ليست شيئاً يسقط في الفم كالفاكهة الناضجة بفضل ظروف مواتية، ففي عالم كعالمنا حافل بالنوائب التي لا يمكن تحاشيها وحافل بالمرض والإضرابات النفسية، وحافل بالكفاح والفاقة وسوء النية، على الإنسان الذي يريد أن يكون سعيداً أن يواجه أولاً أسباب الشقاء التي تهاجمه، فالسعادة إنجاز أكثر مما هي منحة من السماء، وعلى الإنسان أن يقوم بجهد كبير في هذا الإنجاز

سواء كان داخل نفسه أو خارجها، هذا الجهد يعود بالخير له»، وقد وضع «راسل» أن العمل من أسباب سعادة الإنسان حتى إذا شعر الفرد بضجر وهو يقوم بعمل ضرورى غير شائق فهو لا يقاس بالضجر الذى يشعر به عندما لا يكون لديه ما يعمله لأيام متوالية.

وفى النصف الثانى من القرن العشرين فى منتصف الثمانينيات صدر كتاب «كيف تكون سعيداً» لكتاب إنجليزى درس علم النفس وعمل به لفترة، وقد قدمت كتابه هذا فى ذلك الوقت على عدة حلقات تحت عنوان «رحلة البحث عن السعادة»، أعرض هنا بعض ما كتبه فى السعادة بمفهوم عصرنا ولا تخلو من مفهوم الفلاسفة القدامى وهى اقتران السعادة بالخير.

«.. كيف نتصرف بطريقة تعطى لحياتنا معنى وتجعلنا سعداء؟.. الإجابة ببساطة أن نتصرف جيداً بتعاطف مع الآخرين.. بحب.. بأمانة.. بحضارة. قد يسأل البعض: لماذا والطيبة والتحضر، وهذه الأشياء الخيرة ليست مهمة الآن فى العالم؟! حقيقة.. فمن ملاحظتنا وجدنا أنه بينما الإنسان الطيب لا ينال جزاءه الطيب من الحياة فالشرير يأخذ دائماً حقه، وربما يتمتع بالثروة والقوة والنفوذ لبعض الوقت.. لكنه يشعر دائماً بعدم الأمان والخوف والتعاسة، تصرفاته وملامح وجهه تعبر عن هذا، بمعنى أننا لن نجد السعادة بأفعال الشيطان، الذين يعرفون العدل والتعاطف، يعرفون الكثير من أسرار السعادة، يبرهنون أنهم يستطيعون عمل أشياء خيرة، لذلك فالتفكير السليم أن نسلك الطريق الخير وليس الشرير لنضمن سعادتنا».

وفى مكان آخر يقول: «السعادة الشخصية والصالح الاجتماعى يوازنان بعضهما، فالفرد لا يصنع شيئاً لنفسه يمكن أن يضر الصالح العام، ولا يمكن أن يصنع شيئاً للصالح العام، ويضر نفسه، لكننا نجد فى هذا العالم الآن كثيرين يصنعون لأنفسهم ما يفيدهم ولا يهتمون بالضرر الذى يسببونه للصالح العام..».

«إننا فى زمن السباق ولابد أن يهدأ الفرد قليلاً مهما كانت مشغولياته ليجد وقتاً لنفسه. إن الإنسان يبحث عن سعادته فى كل مكان إلا المكان الذى توجد فيه. فى داخل نفسه، وإذا كانت السعادة تنبع من داخلنا علينا أن نتعلم الصمود أمام اعتداء الظروف الخارجية عليها. وأن تكون هذه السعادة حالة عقلية من الوجود والطاقة تساعدنا على قهر القهر والتفوق على الألم. السعادة التى تظهر فقط بظهور الظروف الحسنة وتختفى باختفائها لا تساعد على حل مشاكلنا فى عصر ملىء بالمشاكل».

ويأتى الكاتب إلى سؤال هام: كيف نعيش حياتنا لنصل إلى السعادة؟! ويجيب: «إن نعطى أحسن ما نستطيع، نهتم بكل شىء نعمله، نتعلم أن نعيش حياتنا عمليين وليس مجرد متفاعلين، نعتنى بكل شىء نفعله مهما كان بسيطاً.. ربما يقول البعض إذا فعلنا كل شىء بعناية وإتقان سننتهى بالتعب والإجهاد والحياة متعبة بما فيه الكفاية، وهذا ليس صحيحاً، فالطاقة فى داخلنا تولد الطاقة، وأى شىء نفعله جيداً بطاقة جيدة يقودنا إلى شعور حيوى يؤهلنا لشعور السعادة». يعنى أريد أن أقول إن ما قاله فلاسفة القرون الماضية.. إلى ما قاله الباحثون والعلماء فى علم النفس.. إلى نهاية هذا القرن العشرين يتفق على أن سعادة الإنسان مقرونة بالخير وشعور الرضا.

• جينات السعادة

الجديد الذى توصل إليه علماء النفس فى نهاية هذا القرن أن الإحساس بالسعادة نتيجة عنصر أساسى من جينات قوية، فيبدو أن بعض الناس يولدون بقابلية خاصة أو جينات خاصة للشعور بالرضا، فلا يهم ما يحدث فى حياتهم، جيداً أو سيئاً، مهما تمر عليهم من أمور فهم يعودون إلى حالتهم الطبيعية بأى درجة من السعادة تأتى إليهم طبيعياً، وهؤلاء الناس لديهم القدرة على الشعور بالسعادة، ويرون الجانب الإيجابى من الحياة أكثر من الجانب السلبى، حتى وإن كانوا لا يحصلون على كل ما يريدونه، بينما يوجد ناس لديهم كل ما يريدونه، ومع ذلك يشعرون بالتعاسة، إنهم ينظرون إلى الجانب السلبى، دائما، إنهم يفتقدون جينات السعادة! بينما يقول متخصصون آخرون فى علم النفس الآن عن السعادة أن كل فرد لديه قدر من السعادة فى داخله كنوع من تكوين شخصيته يمكن أن يوظفها لصالحه، بتحديد الأشياء التى تعترض طريق سعادته ويكتشف ماذا يفعل ليزيد هذه السعادة، ثم يوصون بتبنى بعض العادات لتدعيم أو تحسين مستوى سعادة الفرد.

• تدريبات السعادة

- حاول من وقت لآخر أن تستغرق فى عمل يعطيك نوعاً من التحدى وليس متعباً مثل أى نشاط تفضله.
- تعلم كيف تقول سأفعل هذا العمل بدلاً من قولك سأحاول فهذا يعنى تشاؤمك وعدم إقتناعك بقدراتك.
- الناس السعداء متفائلون دائماً مهما قابلتهم المشاكل فهم يعملون على حلها، والتفاؤل يمكن أن يكون مهارة مدربة، تدرب على التفاؤل.

- الإنسان غير السعيد تراه مترهلاً فى سيره، تعلم أن تسير مفرود القامة مثل السعداء لتكون مثلهم.
- ابتسم فالابتسامة ترفع من معنوياتك، إذا ابتسمت ستعطى إشارة للمخ أنك سعيد، اخدع مخك لتشعر بسعادة، عندما تتظاهر بأنك سعيد ستشعر أنك أحسن حالاً، لأن الأفكار الإيجابية ستصل إلى المخ، وهذا التواصل يحمل شعوراً بالرضا.
- الأفكار السلبية تسمم البدن ويمكن أن تسبب تغيرات كيميائية فى المخ تقود إلى الشعور بالاكتئاب، حاول أن تضع الأفكار الإيجابية مكان السلبية.
- يوجد نوعان من الناس يمتصون السعادة من داخلك، الشخص دائم الشكوى والشخص الذى ينقدك دائماً، تخلص من هذين النوعين من الأصدقاء.
- الرياضة البدنية مهما كانت بسيطة مهمة لصحة البدن، وأيضاً تخلصك من الشعور البسيط بالاكتئاب والقلق.
- الإنسان لديه حاجة قوية فى نفسه ليؤثر على المحيط به، والعمل الإنتاجى أو النشاط الاجتماعى مصدر للسعادة.
- تدل الدراسات أن الإيمان يعطى حماية عاطفية للفرد ومعنى أكبر للحياة وفرصة ليفكر الفرد فى غيره، والمتدينون من البشر أكثر سعادة.
- اضحك، فعندما تضحك تشعر بابتهاج لأنك تستشنق كمية أكبر من الأوكسجين والضحك يقلل من توتر عضلات البدن.

الجزء الثاني

أنا.. و

مواقف وشخصيات

أبطال منسيون..!

تعودنا أن نقرأ في المناسبات عن أحداث.. تلك الأحداث تظهر الذكريات في الموعد المحدد والمذكرات، ففي يونية نقرأ عن الهزيمة أو النكسة أو الظروف التي كانت.. حسب المسميات.. في يولية نقرأ عن ثورة يولية بالمدح، بالذم حسب الأهواء. في أكتوبر نقرأ عن الانتصار.. جاءتني الذكريات بدون موعد محدد، واختلطت ذكريات يونية بذكريات اكتوبر، اختلط الماضي القريب بالماضي البعيد في لحظة حقيقية من الحاضر عشتها على شاطئ القنال. في إحدى المدن التي واجهت ضراوة الحرب في يونية وهجرة السكان ومناورات حرب الاستنزاف وصبر الانتظار لسنوات، واخيراً فرحة الانتصار. في الإسماعيلية كانت وقفتي على شاطئ القنال. خلف سور حديدي على مرتفع من القنال وقفت مع جماعة صحبتي. نظرت إلى الشاطئ المقابل. كم من الصور تاتي من الذاكرة عندما نقف على شاطئ القنال. صور من الجغرافيا عندما كانت القناة أرضاً صحراء وصور من التاريخ عندما حفرت هذه القناة، وصور من واقع عشناه. قبل حرب أكتوبر شاهدت الجانب الأخر بمنظار مكبر وشعرت بالغيظ والهوان. حكايات سمعتها من جنودنا عن القناصة الذين كانوا يراقبون لأيام طويلة بالمنظار الشخصيات المطلوبة على الشاطئ المقابل، وكيف كانت رصاصة القناصة لا تخيب ويستعدون بعدها لوابل من قذائف المدافع.

تذكرت تلك البطولات أثناء العبور والنيران مشتعلة على جانبى القنال. تذكرت الجندى الذى قابلته وقت أكتوبر حزيناً لأن قدمه المصابة منعته من الأشتراك فى حرب الانتصار، فقد قطع سُيناء على قدميه مرتين مهزوماً عام ٦٧,٥٦. تذكرت هذا وأنا أراقب المعدية وهى تتهادى بهدوء واطمئنان بين شاطئ القنال، تحمل المسافرين من هنا لهناك بحقائبهم وسياراتهم ومن هناك لهنا، وناس فوق المعدية يذهبون ويعودون للفسحة فقط. وكل فرد من صحبتى داعبته الذكريات فأخذ يرويها عن تلك الأيام.. أيام البطولات.. بجوارنا كان يقف على شاطئ القنال خلف هذا السّور الحديدى المرتفع- ومعه اطفاله الصغار ينتظرون مرور قوافل السفن- رجل أسمر ملامحه جادة. يسألناه كما يسأل الأغراب أهل المدينة عن حياته فيها أثناء الحرب . وقدم لنا نفسه من أبطال المقاومة الشعبية. فى هذا المكان المرتفع الذى تكسوه الحشائش والأشجار ويتنزهون فيه أهل المدينة، كان الجنود المصريون مستعدين دائما لسنين طويلة . وهم وراءهم أبطال المقاومة الشعبية الذى كان الرجل قائداً لهم.. من زمن لم أقابل مثل هذه الشخصية النقية ولم أسمع مثل هذه الحاكايات الصادقة تصدعت رءوسنا فى المدينة الكبيرة بحكايات الغش ونصابين الانفتاح وسارقى الأموال وأصحاب البطولات الوهمية. هل نسينا زمن البطولات الحقيقة؟!

تذكرت أبطال المقاومة الشعبية فى فرنسا وقت الحرب العالمية الثانية. شاهدت بعضهم فى مدينة صغيرة فى جنوب فرنسا، عجائز يتقدمون موكب ذكرى انتهاء تلك الحرب، فى كل مدن فرنسا يتقدم

المواكب هؤلاء الأبطال الذين مازالوا على قيد الحياة، والذين ماتوا يضعون الزهور على قبورهم يكرموهم للآن. لم ينساهم أحد فى زحمة والخبطة الحياة. فأبطال المقاومة الشعبية لايقلون أهمية عن الأبطال من الجنود والضباط.

هذا البطل من المقاومة الشعبية يذكرنا بنفسه. لابد أن أبطالاً كثيرون مثله يقفون على شواطئ القنال يتذكرون بطولاتهم ويذكرون الناس بأنفسهم أبطال منسيون. «تحت وابل القنابل والمدافع كان الجنود يعبرون وكنا هنا نحمى المدينة» «الإسماعيلية عزيزة علينا لم أتركها يوماً من تلك الأيام المظلمة. كانت مقفرة خالية من السكان وحزينة».

من كثرة ما سمعت شكوى سكان القاهرة من مدينتهم ومن كثرة ما سمعت ضيقهم وذمهم فيها أعجبنى حديث الرجل عن مدينته وحبه لها. لم يهتم لسنين بعمله الذى يتكسب منه ومن الذى كان يحتاج لصنعته فى النجارة والمدينة خالية من السكان.

عند الغروب تركنا المدينة وأشجار البوانسيانا المليئة بالزهور الحمراء القانية والبرتقالية تغطى شوارعها. هذه الأشجار الكثيفة لعبت دوراً فى حماية المدينة ضربت واحترقت وهى مازالت واقفة جذورها قوية فى الأرض مثل رجل المقاومة الشعبية.

من عام ١٩٩٣

الممثلون..

إذا كانت الدنيا مسرحا كبيراً فسنجد ممثلين فى كل مكان، فى أماكن العمل، فى الحفلات فى لقاءات الأصدقاء، يوجد ممثل يعتمد على أسلوب الصدمة. فيصدم الموجودين بكلماته أو بأسئلته المحرجة، ويوجد ممثل يعتمد على الأضحاك بسرد الحكايات الساخرة ليركز الانتباه عليه، ومن هؤلاء الممثلين الكوميديين فى المجموعة يكون غير ذلك فى بيته، فيكون صامتا معظم الوقت أو متجهما كأنه ضمن إعجاب زوجته به فلا يقوم بمجهود ليظهر جاذبيته، أما وسط المجموعة فهو يحب أن يلفت إليه الانظار، ومن ناحية أخرى ربما تكون الزوجة قد توقفت من الاعجاب به والحماس لما يقوله بانشغالها بالبيت والأطفال، فلا يجد من يشبع رغبته والحماس له إلا فى المجموعة.. فى كل مجموعة أصدقاء من المهن المختلفة نجد الذى يسرد الحكايات المضحكة ليجعل الباقين يضحكون ، ويكون موضع الاهتمام ، عندما يرى هذا الممثل المتفرجين يجدونه مضحكا ويريدونه فى لقاءاتهم، هذا فى حد ذاته شعور يعطيه قوة على الاستمرار.

أحيانا يشعل الممثل فى الحياة النار على الموجودين فيجعلهم موضع سخريته، والناس تحب أن تسخر من شئ بعيد عنها، أو أخرين بعيدين، البعض يضطر أن يبتسم حتى لايفسد اللقاء والبعض يصدونه بكلمات جارحة!.. والصوت المرتفع يلعب دورا فى حياة هذا الممثل، فصوته يرتفع عن كل الموجودين يريد أن يجهز على

أصواتهم بصوته، وإذا كان فى اللقاء أكثر من ممثل بصوت مرتفع يصبح المكان كأنه سباق للدرجات البخارية!

أحيانا يمثل الفرد ليعوض شعوره الداخلى إنه غير محبوب من المجموعة فهو يعرض نفسه فى تمثيلية مسلية ليحظى بإعجاب الموجودين ماذا لو وجد عدم حماس من الموجودين وهو مازال يقوم بتمثيليته؟! ويوجد ممثل فى الحياة يعتمد على معارضة وإغاظة المجموعة. يقول كلمات لا يعنيها تماما، وأراء لا يوافق عليها فى نفسه، لكنه يريد أن يرى رد فعل الموجودين. يأخذ وجهة النظر المخالفة، ويشعر بسعادة بمراقبة الموجودين وهم يحاولون إلا يفقدوا أعصابهم وحتى مثل هذا النوع من التمثيل الذى يكون موضع غضب الجميع فهو يجعل صاحبه مركزا للفت النظر .ومثل هذا الممثل يشعل النار فى اللقاء ويجعل الموجودين كل واحد ضد الأخر.

ماذا تفعل الزوجة التى تجد زوجها ممثلا فى المجموعة؟! إذا نهرته ربما تحدث فجوة بينهما أو غضب هل تشجعه أم تصمت. أم تكون مثل المجموعة مرحبة أو غاضبة؟! ربما إذا أعطته الفرصة فى البيت ليحكى لها قصصه وتضحك منها، وتشجعه على الاسترسال، ربما يكون متحمسا ليقوم بدور الممثل المضحك فى المجموعة. أما إذا كان ممن يحبون لفت الأنظار بالمعارضة أو الإغاظة فمن الافضل أن تتركه يشبع هوايته فى المجموعة!.. وهذا ينطبق على الممثلات فى الحياة من الزوجات وإن كانت بعضهن يكبتهن أزواجهن فى البيت فينطلقن وسط المجموعة مما يثير غضب أزواجهن أو تعجبهم وأحياناً إعجابهم!

معظم الناس يعتقدون أنهم حتى يكونوا ممتعين للآخرين، فهم لابد أن يقولوا حكايات مضحكة، وتعليقات ساخرة، لكنهم لايدركون أن جزءا من كونهم رفقاء جيدين ومطلوبين فى اللقاءات أن يكون لديهم القدرة على جعل الآخرين يتحدثون ويستمعون إليهم. إذا كنت ممثلا فى الحياة، تبحث عن تركيز الضوء عليك، صاحب النكات والحكايات الساخرة، لابد أن تعرف أن الممثل الجيد فى المجموعات هو الذى يعرف أن تمثيليته لن تكون جيدة إلا إذا أعطى فرصة لحديث الأخرين، لكن معظم هؤلاء الممثلين فى الحياة يعتمدون على قوة أصواتهم ولايعطون فرصة لغيرهم خصوصا الذين لايتمتعون بأصوات قوية أو مرتفعة مثلهم؛ ويشعرون بسعادة فى تركيز الاهتمام عليهم، ويعتقدون إنهم يجعلون الجميع مسرورين، ولا يدركون الاحباط الذى يصيب معظم المتفرجين!

محاولة للتسامح

من وقت لأخر يقفز الانسان بذاكرته الى ماضى حياته، إذا كان صافى النفس وعقد معاهدة صلح معها وقرر أن يطلق منها- أى نفسه- الذين أساءوا اليه أو جرحوه، تكون قفزات ذاكرته إلى الاوقات السعيدة فى حياته، يسعد لحظات بتذكرها وربما تقويه أيضا ويعود الى الماضى ليعيش حياته ، لن يستطيع الأنسان أن يعيش حياته طبيعيا وراضيا بدون أن يسامح، أو يطلق هؤلاء الذين أساءوا اليه من نفسه، لكن معظم الناس لايقدرون قيمة التسامح لصحة أبدانهم وعقولهم، يحبسون فى داخلهم الذين أساءوا اليهم أو جرحوهم، يتذكرون طول الوقت الألم الذى أصابهم، يحقدون عليهم، يستنفدون طاقاتهم فى الغضب والاستياء غالبا ما يكبتون غضبهم واستياءهم فيتجهان الى داخل النفس الى مستوى أخر من اللاشعور حيث يبقيان مثل جرح مفتوح اذا لم ينظف بالتسامح يتلوث، يتحول الى مرض وهو الاستياء العام.

الكبت أو قمع الشعور يضعف قوة الحياة فى الفرد وتحل محلها قوة الموت بميل الفرد الى التفكير بعدم جدوى الحياة تضعف طاقته الجسمانية فيتسلل المرض الى بدنه وكثيرا مايشعر بالتعب والاجهاد، ومن الاعراض المرضية التى تصيب الجسد من كبت الغضب والاستياء التهاب المفاصل والام الظهر، وقد يسبب الاستياء اضطرابا فى النوم، الفرد لايستطيع أن ينام وهو يدير هذا الشريط

المسجل القديم فى أفكاره، هذه الألام التى سببها له الآخرون. الالم مازال فى عقله يتجه الى الحبوب المنومه فينام ساعات طويلة ويستيقظ كأنه لم يسترح ساعة واحدة. ومن ناحية أخرى الاستياء يمكن أن يدفع الفرد إلى النوم باعتقادانه سيتخلص من شعوره هذا بكثرة ساعات النوم لكنه مع عودة وعيه يجد أن مشكلته لم تحل ويشعر اكثر بالتعب، وأحيانا يتجه الفرد إلى الأكثار من الطعام أو الغرق فى عادات رديئة. «إذا زادت كمية الطعام الذى تتناوله اسأل نفسك لماذا لاتشبع؟!. وإذا زادت ساعات نومك اسأل نفسك لماذا لاترتاح؟!»

اذا تعلمنا التسامح نستطيع تقبل الواقع ويمكنا التغلب على اضطرابات النوم التى تمتص حيويتنا ليلة بعد ليلة، يوجد سبب قوى للتسامح وهو صحتنا النفسية والبدنية، التسامح هو حب للنفس ايضاً، اذا دخل شخص حياتنا فهو يصبح جزءا من عقلنا خصوصا فى علاقات الحب والزواج اذا حدث واساء الينا هذا الشخص أو جرحنا وانتهت العلاقة ونلعنه، معناه اننا نلعن جزءا من عقلنا أو كأننا نعذب أنفسنا، هل يمكن أن يستمر إنسان فى ضرب نفسه؟! لابد أن نفرج عن هذا الشخص من انفسنا، أى نفرج عن استيائنا ونسامح. اذا استمر الفرد يفكر فى علاقته الماضية واستمر على حقده على الاخر كأنه يتناول جرعات من السم كل يوم، تؤثر عليه بالتدريج وتحطم صحته البدنية والعقلية. اذا تركزت طاقته على الماضى لن يجد لديه طاقة كافية ليعيش حياته فى الحاضر، لابد أن نفكر بجدية هل نستنفذ طاقتنا وحيويتنا فى مشاعر سلبية أم نستغلها فى حياة إيجابية؟!

وفى محاولة للتسامح :

«أسأل نفسك منذ متى وأنت تكبت الحقد على شخص أخر، وكم من الوقت قضيته فى تدبير الانتقام، وماذا ستجنى من انتقامك، ومن الذى ستعاقبه حقيقة، الشخص الاخر أم نفسك؟» ثم حاول أن تردد هذه العبارات لنفسك. «الانتقام ليس له مكان فى حياتى. لن أجنى منه شيئا، ربما أعاقب نفسى بانتقامى. الاستياء محبط للنفس وسأبدأ من اليوم فى تحرير نفسى من الماضى بالتسامح».

زهرة فى القلب

زرعتها أمى فى قلب كل من أنجبته، وعندما زرعت الزهرة فى قلب أخى أصغر أبنائها، وفى قلبى أصغر بناتها نصحتنا أن نراعى هاتين الزهرتين جيداً لأننا صغيراها وسيتركنا الكبار وحدنا.

زهرة فى القلب ارتوت بتعاطفنا، ولعبنا، وشقاوتنا، وصداقتنا وكبرت معنا، وظلت محتفظة برونقها ولونها وإخضرار أوراقها، وكانت أمى تراعى زهرتيها الغاليتين لصغيريها، ارتبط إسمانا معاً فكانوا يقولون هذا الشىء له، ولها. جمعتنا أيام جميلة وأحلام كبيرة، ثرنا مع ثورات المظاهرات ضد الاستعمار، ورددنا كلمات لم نفهمها تماماً.. نفديك بأرواحنا يا وطن.. ورقصنا مع إشراقات الثورة، فالمستقبل كان وقتها، لنا، اكتشفنا فى سنين مبكرة طريق حياتنا العملية، فى زياراتنا لمنطقة الأهرامات كان يهتم بكل معلومة عن الآثار، وبهرته الرسومات على جدران المقابر، وفى قراءاتنا للكتب والمجلات كنت أهتم بقراءة القصص، سبقنى إلى الجامعة، لكنه لم يحب دراسة الهندسة.

وفى السنة التى التحقت فيها بالجامعة فُتحت أقسام جديدة فى كلية الآداب منها الآثار والصحافة، فترك الهندسة والتحق بالدراسة التى يحبها فى الآثار، التحقت معه فى ذلك القسم حتى نتزامل معاً، لكنى ضقت بعلوم الآثار كما كنت أقف متململة أمام جدران المعابد والمقابر ونحن صغار، أنتظر انتهاءه من اهتمامه بها، فالتحقت

بالقسم الذى يناسب هوايتى، الصحافة، ومع ذلك تزاملنا معاً، حكايات وتواريخ كثيرة لسنين عديدة عشناها وشاهدناها معاً، جمعتنا أفراح مضيئة وأحزان نبيلة، شاركنا آلاماً عامة وآلاماً خاصة، شاهدنا اللافتات المعلقة معلنة إننا سنسحق الأعداء، وبكينا عندما شاهدنا انتكاسة اللافتات.. شاهدنا فرحة الانتصار، وحملنا أعلام نصر أكتوبر معاً، شاهدنا، وعشنا، واشتركنا.. أشرقت أيام كثيرة وغربت ونحن معاً، حتى فى سفرياته الكثيرة، القصيرة والطويلة تواصلنا لم ينقطع، نتشاجر.. نتصافح.. نختلف، نتفق، وزهرة الحب فى قلبينا موجودة دائماً.

وكما يحدث فى حكايات الأساطير القديمة ظهر عفريت من الجن فى حياتنا، بأظافره الطويلة حاول اقتلاع الزهرة من قلبينا، بالنار التى ينفثها من فمه أشعل الحريق بيننا، فهل تتحول الزهرة إلى جمرة؟! فيل دخل خطأ فى حديقة أمى وداس كل زهورها لم تتحمل المنظر فرحلت عنا.. ابتعدنا، تعادينا والغصة فى قلبينا، تعتصر الزهرة، لكنى فى كل ربيع فى عيد ميلاده مع تفتح الزهور أشعر بتفتح الزهرة فى قلبى، أطلبه خلسة خلال الهاتف لأهمس فى أذنه، كل سنة وإنت طيب، فيشكرنى ويصمت، وأعتقدت أن العفريت نجح فى انتزاع الزهرة من قلبه، ومع ذلك انتظرت أن يحدث فى الواقع كما يحدث فى الأساطير القديمة أن يحترق العفريت وينتصر الخير على الشر وتتفتح الزهور فى قلبينا ويعود الوئام بيننا.

انتظرت.. وانتظرت.. وعندما طلبنى أخيراً كان على فراش المرض الذى لا يرحم، من ابتسامته، ونظرته، وقبلته، أيقنت أن

الزهرة مازالت فى قلبه، لم أستطعت أن ألومه على فراقنا الأحمق سنين طويلة، حكى لى حكايات لم أكن فيها، وحكيت له حكايات لم يكن فيها، عالمه اختلف تماماً عن عالمى، لكن الزهرتين لم تختلفا فى القلب.. أيام قليلة تصافينا مثل الميلودرامات الرديئة حيث لا يكتشف الفرذ المحبين الحقيقين، إلا وهو على فراش الموت.

لقد بكيته سنوات عشر.. ربما لذلك تحجرت الدموع فى عينى، جفت الدموع من عينى، وتمتمت بأغنية فرنسية قديمة كنت أناجيه بها فى سفرياته القديمة.. صديقى.. حبيبى.. أخى.. قل لى.. ماذا نفعل بأمنياتنا على الأرض؟!!

من عام ١٩٩٥

سمكتي الذهبية

قال صديق إنه يشعر بالسأم من الحياة الروتينية ومن المشاكل العامة التي يبدو إنها لن تنتهي. قال آخر إنه يشاهد هذا السأم في عيون ناس كثيرين في الطريق، وقال الذي يشعر بالسأم إن ما يشاهده في عيون الناس هي اللامبالاة، وليس السأم.

وتحدثنا طويلاً عن السأم واللامبالاة وهل يوجد اختلاف بينهما؟ الاختلاف حقيقة، فاللامبالاة تختلف عن السأم، اللامبالاة حالة ثبات أو جمود تصيب الفرد عندما لا يتوافق نظامه العصبي مع المحيط به، إنها حالة إنسحاب من الوعي فيتجمد الشعور، إلى أن يحدث شيء خارجي يحركه، اللامبالاة يصاب بها الإنسان والحيوان، أما السأم فهو في مرتبة أعلى لا يصاب به إلا جهاز عصبي معقد وعال مثل الجهاز العصبي للإنسان، الإنسان متفرد في قابليته للسأم وهو من القوى التي شكلت سلوكه، السأم حقيقة في تاريخ البشر مثل الحرب والمرض.

تذكرت الكاتب الإيطال «ألبرتو مورافيا» فهو قد وضح هذا الفرق في روايتين «زمن اللامبالاة» و«السأم» حاولت استرجاع تجربتي مع الشعورين وجدتها واضحة الاختلاف، وإن كان أحياناً خيطاً رفيعاً يربط بينهما. يصيبنا السأم إذا أصبحت حياتنا رتيبة إذا تجمعت فوق رءوسنا مشاكل عامة وخاصة لا نجد حلاً لها.

مئات الشباب الذين يتخرجون من الجامعات كل عام ولا يجدون العمل يصيبهم السأم ويصبح نوعاً من اللامبالاة.

إذا نظرنا إلى هجرة أهل الريف والمدن الصغيرة إلى المدن الكبيرة بعيداً عن قلة الخدمات هناك نجد أن إصابة هؤلاء الناس بالسأم خصوصاً المتعلمين منهم هى الدافع إلى هذه الهجرة، ففى الريف والمدن الصغيرة يزداد الشعور بالسأم حيث يكون رأى المجتمع متمثلاً فى آلاف العيون المراقبة والأذن المستمعة بمثابة حصار لتصرفات الفرد، وحيث تكون الوظيفة هناك تسير على وتيرة واحدة والحياة عموماً كذلك يمكن أن يصاب الفرد بالجنون و الانغماس فى المخدرات.

فى ألمانيا زرت يوماً مدينة صغيرة تقع فى حضن جبل، مدينة جميلة هادئة يقصدها الناس للإستجمام فى فصلى الربيع والصيف، أما فى الشتاء فهى تصبح مدينة معزولة تماماً حيث تغطى الثلوج الجبال ويستحيل وصول أية مواصلة إليها، سألت يومها ماذا يفعل السكان هناك؟ قالوا إنهم يخزنون المواد الغذائية لهذا الفصل، والقادرون يهجرونها إلى المدن الكبيرة أما الذين لا يستطيعون فيعيشون كل عام عدة أشهر فى سأم العزلة. شعرت يومها باكتئاب كأننى أعيش سأمهم فى ليالى الشتاء الباردة.

لقد وصف أحد الفلاسفة الأهرامات المصرية بأنها نتاج سأم ملكى، فقد سخّر ملوك الفراعنة الاف الناس ليبنوها حتى يزيلوا سأمهم! وفرسان العصور الوسطى ما كانت حروبهم إلا تبديداً لسأمهم فلم يكن لديهم عمل سوى فنون الحرب والقتال إذا لم يقوموا بعملهم يصيبهم السأم، ويرجع قيام الحروب الكبيرة فى القرن العشرين إلى سأم الزعماء! من هنا نجد أن حركة الإنسان والعمل أحسن دفاع ضد السأم، سواء بالحركة البناءة أو المدمرة، لكن

هل مجرد أن يقوم الإنسان بعمل ما لا يشعر بالسأم؟ ولماذا ألوف الموظفين يشعرون به؟ إنهم لا يعملون بجدية وجودة لذلك لا يشعرون أنهم يعملون بل يضيعون وقتهم فيشعرون بالسأم. من ناحية أخرى كثيراً ما يعطى الفرد ظهره للأحداث ويعتقد أنه بذلك يمنع عن نفسه المشاكل والتعب، لا يتعب عقله فى التفكير ومع ذلك يـ ـعر بالتعب الذى يهرب منه فهو لا يدرى أن ثراء الطاقة يأتى من حالة العقل واستخدامه، ربما يشعر بسأم من الحياة وإنها صراع لا ينتهى، وهذا بالتالى يقود إلى مزيد من الشعور بالتعب، الاختفاء من المشاكل يبعث على السأم. وأحياناً يقرر الفرد أن يصنع جنة يعيش فيها بعيداً عن الناس والعالم الذى يضايقه ويتخيل أنه سيعيش فى سعادة خالدة لكنه بعد فترة يجد جنته لا تحقق له السعادة، ويشعر بالسأم، من هنا ندرك أن السأم حقيقة من القوى التى تشكل سلوك الإنسان حتى إذا عشنا فى زمن السلام العظيم والشجر يطرح نقوداً ستظل لدينا مشكلة السأم، المهم أن نعرف كيف نتغلب عليه ولا نجعله يظل طويلاً يضايقنا مهما كانت ظروف حياتنا معاكسة، ليس غريباً اختراع اللعب والتسلية فهذه الأشياء تكسر رتابة الحياة، إنها ليست مضيعة للوقت لكنها تضيع السأم.

فى أيام سأمى المريرة كانت تظهر لى فى أحلامى سمكة ذهبية أحدثها، لتساعدنى على اختيار طريق صحيح، أن تحمينى من الخوف والمرض من إطار السأم الذى يحيطنى، كنت ألعب معها ألعاباً مسلية، أقفز معها على أمواج بحر منفرد، علمتنى سمكتى التغلب على المشكلات والصعاب وتقبل خيالات الأمان.. وأنقذتنى من سياج السأم.

راوية عطية.. ويوم لا ينسى

ذات يوم ربيعي في عام ١٩٧١ .. توجهت في الصباح الباكر إلى مكان السيارة الكبيرة التي ستذهب بنا في رحلة إلى جبهة القتال.. كانت تنظم تلك الرحلات وتقودها «راوية عطية» بالتعاون مع القوات المسلحة.. استقبلتني راوية بالأحضان، وقالت: إننا نتقابل دائماً في الأوقات الهامة. لقد قابلت «راوية عطية» أول مرة أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ٥٦، كنت في الأتوبيس الذاهب إلى جامعة القاهرة، حيث كنت طالبة في قسم الصحافة، ولفتت نظري، كانت ترتدي زي الجنود وعلى كتفيها رتبة ضابط لا أذكرها، قدمت لها نفسي، وطلبت منها أن أكتب عنها وماذا تفعل في تلك الفترة للجريدة التي أتدرب بها، رحبت بي وتواعدنا.. كانت راوية شعلة من الحماس والنشاط تتنقل بين مدن القنال حيث كانت المقاومة الشعبية للغزاة. قابلتها بعد ذلك عام ٥٧، وكانت مرشحة نفسها لمجلس الأمة، والطريف أنني قمت بالدعاية لها بدون أن أدري، فقد كان لنا زميل في قسم الصحافة أخوه كان مرشحاً في نفس الدائرة التي بها راوية عطية. وطلب منا أن نساعده في الدعاية لأخيه، وذهبنا مجموعة من الطالبات الصحفيات الناشئات.

كنا نوزع أوراق الدعاية للمرشح، لكن أهل تلك الدائرة كانوا عندما يشاهدوننا يهتفون لراوية عطية! مجموعة من الفتيات يقمن بدعاية انتخابية فلابد أن تكون لأول امرأة تدخل مجلس الأمة.

قابلتها بعد ذلك وقت الحماس الشعبى قبل حرب ٦٧، ثم علمت أنها انضمت إلى المقاومة الشعبية فى مدن القنال بعد النكسة، وعندما تمركز الجيش هناك بدأت فى القيام بتلك الرحلات التى كانت تنظمها وتقودها إلى الجبهة واتصلت بها، وكان لقاؤنا فى سيارة الرحلات فى ذلك اليوم الربيعى عام ٧١.

ذهبنا إلى أحد خطوط المواجهة إلى مدينة السويس وجارتها الجميلة بورتوفيق، هذه المدينة التى أحببتها، وكنا فى رحلاتنا الحلوة قبل الحرب نقف فى طريق بجانب القناة نشير لركاب السفن العابرة. اختفت معالم الطريق كما اختفت معالم المدينة بالدمار.. هناك على الضفة المقابلة كانوا يراقبوننا.. الجنود الإسرائيليون.. ناولنى ضابط منظاراً مقرباً لأشاهدهم، لم أستطع، أحاط بنا الجنود والضباط المصريون، وحكوا لنا عن أيامهم هناك، وأعربوا عن فرحتهم بزيارات المدنيين لهم على الجبهة، لقد أيقنت راوية عطية بهذا وبدأت فى تنظيم تلك الرحلات إلى الجبهة من العاملين فى مختلف المجالات حتى يشعر الجنود أن المدنيين يقفون بجانبهم، وأيقنت أيضاً أن الجندى لابد أن تُحل مشاكله العائلية أو العملية حتى يكون مرتاحاً وهو يترقب ويدافع عن وطنه، وكانت خلال تلك الرحلات تحمل مئات من خطابات الجنود إلى ذويهم والجهات المعنية، وتعود إليهم بمئات الردود، لقد ارتبطت راوية عاطفياً بهؤلاء الجنود وأسرهم حتى أنها أسست فيما بعد «جمعية أسر الشهداء». وكانت رئيسة لها إلى أن رحلت.. طوال عمرها كانت تقوم بإخلاص فى الخدمات العامة.

فى نهاية ذلك اليوم، فهمت لماذا لم أبك لذكريات رحلاتنا الحلوة قبل ٦٧، إلى تلك الأماكن التى أحببتها ودُمرت، عندما فهمت سر ابتسامة جنودنا هناك، فكانوا ينظرون أمامهم إلى الجبهة المقابلة بإصرار على النصر ولم ينظروا خلفهم كما فعلت، وكان نصرهم فيما بعد، يوم رحيل راوية عطية، سألتنى صديقتى الكاتبة الصحفية «عايدة العزب»: هل أذكر يوم قادتنا راوية إلى جبهة القتال؟ قلت سارحة فى ذكريات تلك الفترة إنه يوم من الأيام التى لا تُنسى.

من عام ١٩٩٧

الباشا وأنا..

في عام ١٩٧٨ أعلن عن عودة الأحزاب السياسية، وتطلعت الأنظار إلى عودة حزب الوفد. البعض مرحباً كأنه سيجد الخلاص مع الحزب القديم الجديد، والبعض مستنكراً كأنه سيرى حكم الماضي البغيض. أثناء تلك الهوجة ناداني رئيس التحرير الأستاذ والفنان حسن فؤاد وقال لي إنه أسند إلي عمل حديث مع الباشا فؤاد سراج الدين، أولاً حسبت أنها طرفة من طرائف الأستاذ حسن فؤاد الظريفة وضحكت. لم يجارينى في الضحك وقال إنه قد حدد لي موعداً مع الباشا. غاصت ضحكتي.. سألت: ماذا؟! وقلت كلمات كثيرة معتذرة، وإنني لا أحب الأحزاب السياسية.. ولا.. الباشاوات.. فقال لذلك أسند لي هذا العمل! وكانت للأستاذ حسن فؤاد طريقة تحمسنا على العمل بل تضعنا في موقف تحد، فذهبت إلى أرشيف كبير بجريدة يومية وطلبت الاطلاع على دوسيه الباشا فؤاد سراج الدين، استعداداً لمقابلته، وكان ذلك اللقاء في فبراير ١٩٧٨.

• قصر الباشا

كنت أمر كثيراً أمام هذا القصر. أحد معالم حي جاردن سيتي قبل أن تغزوه العمارات العالية والبنوك والشركات، أحياناً كنت أجد جنايناً يعتني بالحديقة، أو خادماً ينفض الغبار عن إحدى النوافذ الكبيرة، وكثيراً ما كنت أشعر أن هذا القصر مهجور من سكانه.

فى الموعد المحدد ذهبت مباشرة إلى هذا القصر دون أن أسأل أين مكانه.. صعدت عدة درجات، دخلت إلى بهو كبير، مقاعد متراصة يجلس فوقها بعض الرجال. تقدم منى أحدهم، سألنى عن طلبى وفهمت أنه مدير أعمال أو سكرتير صاحب القصر، ولما قلت له إن مجلة صباح الخير حجزت لى موعداً وذكرت اسمى، قادنى إلى باب جانبى ودخلت إلى حجرة كبيرة يبدو أنها كانت حجرة المكتب، منظرها العام يوحى أنها كانت مهجورة لسنين، حول الجدران عدة صوانات للكتب، مئات الكتب والمجلدات فوق الأرفف.

مرآة كبيرة فى ركن تحتها رف مكدس بالكتب وتمثال برونزى لفؤاد سراج الدين وفى فمه السيجار المشهور، ساعة كبيرة فى أحد الأركان تشير إلى السابعة، حسبت أول الأمر أننى جئت فى الموعد تماماً، لكنى بعد فترة وجدت بندولها صامتاً وهى تشير إلى الوقت المضبوط بالصدفة!

طاقم من المقاعد الجلدية مكسو بالقطيفة فى جانب. طاقم آخر من القماش فى جانب، فوق الجدران صورة كبيرة زيتية للنحاس باشا وصورة فوتوغرافية لصاحب القصر بملابس رسمية.

من حين لآخر يفتح السكرتير أو مدير الأعمال باب الحجرة الكبيرة ويدخل وافد جديد، يتعارف الموجودون على بعضهم بعضاً، يرحبون ببعضهم، ويبدو أنهم من زمن لم يلتقوا.. وأهلاً يا باشا.. وأهلا يا بيه، وفى إحدى المرات عندما فتح الرجل الباب قال لأحد الموجودين أن يغلق النافذة.. وحدثت حركة غير عادية فى الحجرة وهو يعلن.. الباشا وصل.. سلم علينا فرداً فرداً.. جلس فوق أحد

هذه المقاعد المريحة القديمة، وأمامه منضدة صغيرة حاملة تليفوناً، سألنى مبتسماً أى شىء أريد أن أتحدث فيه معه وهو قد قال ما فيه الكفاية. قلت: لنتحدث فى شىء جديد، جلست على مقعد خشبى صغير بجواره، سألنى إذا كنت أريد أن نكون وحدنا، وقال إن الموجودين أصدقاء.. وقال أحدهم: اعتبرينا غير موجودين.

• جزء من حديثى الطويل مع الباشا

قلت: وأنا فى طريقى إليك كنت أفكر كيف أخاطبك.. أقول لك ياباشا.. يا سيادة الوزير.. حضرتك.. أم.. ماذا أقول؟!

قال: أنا لا أحب هذه الألقاب.. باشا.. بك.. كلمات ليس لها معنى جاءتنا من الأتراك، لكن اللقب التصق بى.. حتى الذين ألغوا الألقاب كانوا ينادوننى به.. خاطبينى بالأخ فؤاد.

قلت: أنا من جيل تفتح شبابه ووعيه مع ثورة ١٩٥٢.. ألغيت الألقاب والأحزاب.. عشت تطورات كبيرة لوضع المرأة فى المجتمع وهذا يهمنى فى حديثنا، استفادت المرأة المصرية من تحول المجتمع إلى النظم الاشتراكية. عندما أخذ المجتمع المصرى بالفلسفة والمنهج الاشتراكي فى تطوير نظامه.. هذه الفلسفة التى تساوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات، وتدعو كل فرد أن يكون منتجاً.. استفادت المرأة من دستور ١٩٥٦ الذى أعطاها لأول مرة فى مصر حق الانتخاب والترشيح لعضوية المجالس النيابية. استفادت المرأة من قانون العمل الموحد الذى صدر عام ١٩٥٩ ويقضى بمساواة المرأة بالرجل فى الأجور بالنسبة للعمل المتساوى. فما هو برنامج الحزب من أجل المرأة؟

قال : التطور الذى حدث للمرأة المصرية يرجع الفضل فيه إلى ثورة ١٩١٩ فكانت التطورات التى شـهـدتهـا ثورة ١٩ فى وضع المرأة المصرية ودورها فى المجتمع حلقة فى سلسلة التطورات التى حدثت فى الوضع الإجتماعى للمرأة المصرية فى الحياة العامة والسياسية . لقد عبـرت المرأة المصـرية عن موقـفـهـا الوطنى ومـشـاركـتـهـا للرجل بالمظاهرات والاجتماعات .

الآن من الصعب سؤال : ماذا أعطى للمرأة ؟ .

طبعاً لن نسلبها الحقوق التى حصلت عليها ونأمل أن نعطيها المزيد . . فى البرنامج اقتراح أن يكون للمرأة العاملة الأم الحق فى إجازة لمدة سنتين وتتقاضى نصف مرتبها . بالنسبة للطفل الأول . فالزوجة الموظفة تعمل لأنها فى حاجة إلى العمل ، لماذا نحرمها من رعاية طفلها فى السنين الأولى ؟ أما بالنسبة لحق الانتخاب فمازال عدد النساء قليلاً . . لابد من التوعية فى هذه الناحية .

قلت : الشباب فى حاجة دائماً إلى أمل . . ما هو الأمل الذى يمكن أن يعطيه حزب الوفد للشباب الآن ؟

قال : موضوع الشباب أساسى فى اهتماماتنا قديماً وحديثاً . . لقد وقع الشباب فى فراغ سياسى بعد ثورة ١٩٥٢ وأصبح فى حالة سلبية . لا يشعر الشعور الكافى بالانتماء .

يجب علينا الآن بناء هذا الشباب وجعله يشعر بوطنه ومسئوليته نحو بلاده فى كل الأمور .

وفى الناحية السياسية بالذات . . لابد من تدريب الشباب الآن تدريباً سياسياً وإشراكه فى المساهمة بالرأى فى مصالح البلاد من خلال الحزب .

• يحيا الوفد

قلت: خلال السنوات الماضية هل كنت تحلم أو تفكر بعودة حزب الوفد إلى الوجود؟

قال: لم يأت هذا بخاطرى، لكنى كنت مؤمناً أن المبادىء الوفدية مازالت فى نفوس الجماهير.. وحب الشعب للوفد موجود. لا أقول إنه كان عندى اعتقاد بأن الوفد سيعود فى يوم من الأيام، لكنى كنت مؤمناً بقضية الديمقراطية وأنها لابد أن تكون فى مصر.

«كان ضمن اسئلتى عن قراءاته وعن السينما والمسرح».

قال: أفضل المسرح، أحبه جداً، آخر مسرحية شاهدتها كانت «يحيا الوفد».

ابتسمت وقلت: لكن المسرحية ليست لها علاقة بحزب الوفد.

ضحك وقال: نعم، لكن عندما قيلت على المسرح عبارة «يحيا الوفد» لا تتصورين كيف صفق الناس الموجودون، وحيونى بحرارة عجيبة سعدت بها، ألم أقل لك إن حب الشعب للوفد موجود، وقد عبر عن هذا الحب لمجرد عبارة سمعها.

• قصر الباشا والفندق

من وقت لآخر كان يرد فؤاد سراج الدين على رنين التليفون بنفسه، من يبارك ومن يسأل عن استمارة العضوية للحزب، وفى إحدى المرات كان يقول عنوان القصر لأحد المتحدثين ليحضر ويأخذ الاستمارة، ويبدو أن المتحدث سأل أين يقع هذا العنوان؟ فقال له: خلف فندق النيل. وقال أحد الرجال الكبار الموجودين بسخرية واستياء.. أصبح بيت الباشا يعرف بفندق النيل؟!

قلت : تزعجنى فكرة هدم القصور العريقة وبناء فنادق حديثة مكانها كما يحدث الآن لقصر شريف باشا ، كان يمكن أن يكون متحفاً . أعتقد أن البلاد لابد أن تحتفظ بشيء من عراقة مبانيها . وقد قيل قبل العفو الشامل الذى حصلت عليه عام ١٩٦٠ أن قصرك هذا معروض للبيع .

قال : الحراسة باعت القصر لإحدى شركات التأمين ، ولما صدر القانون فى السنين الأخيرة بعودة البيوت لأصحابها اشترينا بيتنا . وفى يوم قمت بعمل استفتاء فى العائلة : هل نبيع القصر أم نحتفظ به ؟ والغريب أن الكبار قالوا نبيعه ، أما الشباب فقد اعترضوا بشدة .. وأنا مع رأى الشباب .

• تعليق

سرت أمام قصر الباشا فى ثانى يوم لإعلان وفاته ، وكان القصر مفتوحاً ، رجال كثيرون يدخلون . اثنان وعشرون عاماً مرت على لقائى مع الباشا .. وكان فى عمره السبعينى .. وكان زحام الرجال والشباب لتهنئة الباشا ، ولطلب استمارة عضوية لحزب الوفد الجديد .. تزاحمت التساؤلات فى رأسى ، كان الباشا رمزاً قوياً ومحبوباً لقيام الحزب من جديد واستمراره . فهل سيهتز الحزب بافتقاد رمزه الكبير ؟ ! وهذا القصر ، كان بقاؤه مع بقاء صاحبه فهل سيباع ويهدم ليصبح فندقاً مثل قصر شريف باشا الذى كان تحفة معمارية قوية وجميلة ؟ !

وفندق النيل الذى كان صاحب القصر يتخذه علامة لعنوانه أصبح بناء مجهوراً . . تسكنه عفاريت السائحين .

ترحمت على الباشا . . كان نجماً سياسياً منذ شبابه ، وحتى فى سنى عزلته السياسية لم تختف صورته وأخباره عن الحياة الاجتماعية .

من عام ٢٠٠٠

حضن الحب.. و.. حضن العمر

• حضن الحب..

عندما ناولتني المفتاح غاص قلبي، شعرت أنها تنهي مسئوليتها عني، وعلاقتها بالحياة. تبادلنا نظرات صامتة، متفاهمة، إنه لا مكان لكلمات مجاملة أومشجعة على المقاومة. تبادلنا ابتسامة شاحبة مثل غروب يوم غائم بالسحب القاتمة في الطريق تنبهت أنني مازلت أحتضن المفتاح في يدي. مفتاح مادي.. .كم من المفاتيح المعنوية والتربوية أعطتها لي أختي الحبيبة.

أتذكر أول مفتاح وأنا في سن الطفولة. أعطتني مفتاح اللغة الإنجليزية. لم أنس ذلك الكتاب بمفاتيح اللغة كل حرف من حروفها يرتكن على صورة جميلة ملونة يرمز لها. لقد شاهدت ذلك الكتاب وهي تعلم منه أبناءها وأحفادها. في مراحل تكويني الأولى أعطتني مفاتيح كثيرة. مفتاح التذوق الموسيقي، بالاستماع إلى أسطوانات من موسيقى وأغاني فترة الأربعينيات والتدريب على اللغة الإنجليزية بالأغاني.. الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية في ذلك العمر الصغير في سن العاشرة تذوقت هذه الموسيقى واستمرت معي أعطتني مفاتيح للفن الرفيع. في الرسم كانت تصحبني في رحلاتها الفنية مع زميلاتها في معهد الفنون الجميلة ليرسمن من الطبيعة وتعطيني ورقة وألواناً لأرسم مثلهن حاولت الاستمرار في هذا الفن لكن لم تكن لدي موهبتها فيه. في فن الباليه دعتني في عيد ميلادي

الثالث عشر لأشاهد فرقة باليه عالمية على مسرح دار الأوبرا القديمة بعدها التحقت بمجموعة لتعلم هذا الفن الرفيع فى المدرسة الثانوية «السنية» مع مدربة روسية واشتركت فى حفلات المدرسة، لكن لم يكن وقتها موجوداً معهد الباليه فلم أستمر.

فى السينما شاهدت معها كلاسيكيات الأفلام العالمية وتأثرت بالرومانسيات وفى أول الخمسينيات أخبرتنى بدون كلمات أنها أعطتنى مفاتيح كثيرة لأبواب الحياة، وأنها ستذهب لتصنع حياتها الخاصة بالزواج، وكان من إغراءات الزواج السفر مع الزوج إلى إنجلترا لينال دراسة وشهادة عليا وأنا أجرى باكية بجانب القطار الذاهب إلى بورسعيد ليسافرا بالباخرة من هناك ألقت إلىّ بالمفتاح الذى فتحت به باب الطريق العملى الذى سلكته فيما بعد. قالت وهى تدفعنى لأبتعد عن القطار «أكتبى لى.. كل يوم خطاباً» على الرغم من وجود والدى وإخوتى الثلاثة فى ذلك الزمن إلا أننى شعرت أننى وحيدة بسفرها فقد كانت تحتضننى منذ ولادتى كانت كبيرتنا وبعدها ثلاثة أولاد وعندما جئت من حمل أمى الأخير فرحت بى كبيرتنا فقد أصبح لها أخت، واحتضنتنى، حتى كنت أناديها وأنا طفلة.. ماما.. وأنادى أمى.. ماما الكبيرة.

بدأت أكتب كل يوم، ماذا فعلت، ومن قابلت، وأى شعور شعرت إلى أن تكثر الأوراق وأرسل لها خطاباً، أتذكر الخطاب الذى كتبته لها يوم حريق القاهرة فى يناير عام ١٩٥٢ وكتبته أيضاً كموضوع للإنشاء عندما قرأه مدرس اللغة العربية وكان صديقاً لأبى أخبره أننى يمكن أن أكون كاتبة، أتذكر الخطاب الذى كتبته لها يوم قيام ثورة

يولية من نفس العام. كتبت لى إن مشاعرى بدأت تتطور فبعد كتابتى لها عن وحدتى وسهد الليالى أصبحت أكتب لها عن مشاعرى للبلد والعالم حولى.. لم تستمر أختى فى الطريق الفنى، لا أدرى هل بسبب أوامر خفية من الزوج؟! أم بسبب انشغالها بالإنجاب والبيت؟! تركت ألوان الرسم فجفت، تركت فرشاة الرسم فتقصف شعرها وأصبحت أوراق الرسم البيضاء لونها أصفر وتعلمت منها حكمة بدون أن تقولها أن الله عندما يهب إنساناً موهبة ما ولا يستخدمها تُسحب منه، تعلمت من سلبيات أختى أن أكون إيجابية. على الرغم من أن طريقينا فى الحياة أصبحا مختلفين تماماً إلا أننا لم نفترق عاطفياً طوال سنى حياتنا وعلى الرغم من العزلة الاجتماعية التى فرضت عليها زمناً إلا أن تواصلها الصوتى معنا كان يأتينا كل صباح عندما أدخلت التليفون إلى بيتنا فى أوائل الستينيات بواسطة عملى فى الصحافة فقد كان التليفون عملة نادرة فى ذلك الزمن، دائماً كان يجمعنى بها حضن حب على الرغم من الاختلافات وأحياناً الخلاف.

عندما رحلت أمى لم أشعر بالشعور الذى يشعر به الأبناء برحيل الأم إنهم كبروا فجأة كان حضن أختى يشعرنى أننى مازلت صغيرتها وعندما رحل زوجها لم تشعر أختى أنها أصبحت وحيدة فجأة فكانت صحبتى وزوجى لها تشعرها أنها ليست وحيدة مهما كان التصاق الأم بأبنائها وصحبتهم إلا أنهم ينشغلون بحياتهم الخاصة أكثر من حياتها؛ ربما التصقت بها أكثر فى السنين الأخيرة لشعورى بالمسئولية عنها والتصقت بى أكثر لشعورها بالمسئولية عنى! وقد طلبت منى

مفتاح الشقة عندما وجدتنى وزوجى نسافر أحياناً لترعى الزرع الذى تعشقه فى شرفتنا أو لترتاح من ضجة الأحفاد هذا المفتاح الذى ناولته لى فى آخر لقاء بيننا.

منذ شهور عندما وهن بدنها القوى اعتقدت أنها ستتغلب على مرضها كما كانت تفعل طول حياتها كانت لها قوة مقاومة.. وإيمان قوى.. ربما وهن بدنها فلم يستطع المقاومة ربما ضعفت نفسيتها فلم تتحمل أن تكون حبيسة مقعد، هذه التى كانت شعلة نشاط وحيوية ومرح.. وكأنها قررت أن ترحل.

كانت تخرجنى من أحزانى عندما يرحل المقربون إلينا ونتذكر معاً وصية أبى عندما كان يجدنا نرتدى السواد حداداً ألا نرتدى عليه السواد ونسير فى الطريق مثل الغربان نقفز! فمن الذى يخرجنى من الأحزان الآن وعالمنا غارق فيها مما يحدث من أشرار يحكمون أو يتحكمون فيه!! وكأن العالم ارتدى السواد.

• حضن العمر

فى محاولة للخروج من هذه الأحزان قلبت فى الكتب التى جاءتنى والتى اشتريتها فى الشهور الماضية وإنشغلت عنها بمرض أختى.. وجدت كتاب: «حضن العمر» السيرة الذاتية للكاتبة «فتحية العسال» عن دار نشر الهيئة العامة للكتاب.. بدأت قراءته لتؤنسنى قصة حبها وزواجها للكاتب الراحل عبد الله الطوخى الصديق وزميل العمر. ربما لحاجتى إلى كلماته المواسية المتفائلة حتى فى أكثر الأيام سواداً وتشاؤماً بدأت أقرأ فى الكتاب الذى كتبته

«فتحية» بلغة أقرب إلى العامية، لغة الحياة اليومية بمشاعر عفوية صادقة.

فى هذه المذكرات اختارت فتحية فترة زمنية عصيبة مرت بها مع حبيبها وزوجها عبد الله فى تلك الأيام من عام ١٩٨٢ عندما حدث طلاق بينهما كانت هى مُصرة عليه بعد عشرة سنين طويلة وثلاثة أولاد وبنت فى ريعان الشباب. فهل كانت فتحية تقدر على هذا الانفصال والخروج من حضن حبيبها؟!

خلال تلك الفترة تسترجع فتحية شريط حياها منذ كانت طفلة وصبية وشابة فى مقتبل العمر وتفتح حياتها مع أب مزواج وأم صامتة لترعى أولادها وبناتها ولأن والدها كان كثير الغياب عن البيت فقد أعطى لأخيها الأكبر رعاية البيت خصوصاً للبنت الجميلة فتحية التى نضج بدنها فى سن مبكرة فكان المنع من الدراسة ومن الخروج وحتى النظر من النافذة!

تحكى فتحية عن أول لقاء مع عبد الله وكيف تقدم لها وكيف رفضه أخوها لأنه مازال طالباً فى كلية الحقوق وكيف رفضتها والدة عبد لله لنفس السبب وأن الزواج سيعطله عن دراسته وأيضاً لم تعجبها بنت البندر وتحكى عن حياتها مع عبد الله فى الزواج وبداية الإنجاب والنضال فى الحياة وتشجيع عبد الله ومساعدتها على الكتابة وتفهم الحياة والسياسة، وانخراط عبد الله فى حزب سياسى.

وتنهى فتحية الجزء الأول من مذكراتها أو سيرة حياتها أثناء حملها الثانى والقبض على زوجها عبد الله عام ١٩٥٣ بسبب تورطه

مع الحزب السياسى الذى لم يعجب حكومة الثورة بعض مواقفه منها .

لقد قرأت من قبل السيرة الذاتية التى كتبها عبد الله الطوخى من سنوات وفيها علاقة الحب مع زوجته فتحية لم يختلف حكى فتحية عن حكى عبد الله فى تلك الفترة ونحن فى انتظار الجزء الثانى من مذكرات فتحية العسال . السيرة الذاتية لنعرف منها ما عرفناه من عبد الله الطوخى إنهما لم يستطيعا الاستمرار فى الانفصال فقد كان كل منهما حضنا للآخر .

من عام ٢٠٠٢

لغز ثورة.. فرحة حرب ونهاية كل صيف

• لغز ٢٣ يوليو

هو عنوان كتاب لزميلى وصديقى الشاب رشال كامل، والكتاب عبارة عن حوارين طويلين مع اثنين من ألمع الضباط الأحرار، الأول هو الدكتور محسن عبد الخالق والثانى هو اللواء جمال القاضى، فى مقدمة الكتاب كتب رشاد: «كنا فى صيف عام ١٩٨٥ حين كان الدكتور محسن عبد الخالق فى زيارة للصديق الكبير الأستاذ لويس جريس رئيس تحرير مجلة صباح الخير وقتها. كان صيف عام ٨٥ يشهد خناقات سياسية وصحفية حول ثورة يوليو وزعامة عبد الناصر، وجاء اقتراح الأستاذ لويس بتحويل الخناقة إلى حوار صحفى طويل يناقش كل ما يدور فى أذان جيلى من أسئلة تغلفها الحيرة ويكسوها الضباب، من هو مؤسس تنظيم الضباط الأحرار؟! عبد الناصر أم السادات.. حوارات الثورة مع الأحزاب.. حكايات المنشورات السرية للتنظيم ومن كان يكتبها ويوزعها؟! لماذا اعتقل عبد الناصر ضباط المدفعية رغم مساندتهم له وعاد ليفرج عنهم فى عز أزمة مارس ٥٤.. بداية ونهاية محمد نجيب أول رئيس لمصر.. سر غرام جمال عبد الناصر بالصحافة والكتابة، ولغز اقتراب هيكل منه، بينما ابتعد الآخرون. وهكذا بدأ الحوار لساعات مع الدكتور محسن عبد الخالق طوال شهور الصيف.. وفى يوليو ٨٦ وجدت الحلقات طريقها للنشر على صفحات مجلة «صباح الخير».

أما الشخصية الثانية فى حوارات الكتاب فقد كتب عنها رشاد:

«.. ثم جاء صيف عام ١٩٨٩ وكان الكاتب الكبير الصديق الأستاذ مفيد فوزى قد تولى رئاسة تحرير مجلة صباح الخير الذى تحمس لنشر مذكرات اللواء جمال القاضى عضو تنظيم الضباط الأحرار. كانت المذكرات عبارة عن بضعة شرائط كاسيت سجلها الرجل بصوته وروى فيها بعض ذكرياته عن الثورة، وبعد سماعى للشرائط كان لابد من استكمال جمال القاضى، وتم تسجيل أكثر من ست ساعات أخرى لما سبق أن رواه الرجل بصوته، ونشرت الحلقات على صفحات المجلة فى يوليو ٨٩ وكان لوقائعها وطرائفها صدى لم أتوقعه.. وبعد عشرة أعوام أعدت قراءة مذكرات جمال القاضى ومحسن عبد الخالق ووجدت أن ما نشر كان بمثابة محاولة للاقتراب من ثورة يوليو ١٩٥٢.. ماذا جرى وكيف جرى ولماذا جرى؟ تلك الثورة التى تحولت بمرور السنوات إلى لغز غامض».

لم يخل هذا الكتاب من المشاحنات والتناقضات فى أقوال الضباط الأحرار صانعى الثورة، وكما جاء فى كلمات د. محسن عبد الخالق تعقيباً على تعليقات الأستاذ أحمد حمروش الكاتب، وكان من الضباط الأحرار.

«.. نحن لا نصلح لكى نكون مؤرخين لحدث عاصرناه واشتركنا فى صنعه وارتبطنا به وبأشخاصه بأربطة عاطفية مهما كان نوع هذه العاطفة ودرجة حرارتها ونصيبها من الغضب أو التعاطف، أو من الرفض أو القبول.. نحن مطالبون بتقديم المادة التاريخية.. إذ كلما تعددت الآراء والاجتهادات فيها وكلما تباينت التحليلات والرؤى

كلما كان فى ذلك ضمان لاستقراء أفضل للأحداث بدوافعها ونتائجها وظروفها وبالتالى يكون التوصل للحقائق أفضل وأكثر صدقاً.. إن ما نعمله الآن ليس تاريخاً، ولكنه تقديم للمادة التاريخية فقط.. إن ثورة يوليو ليست حدثاً من أحداث التاريخ مثل قتل سليمان الحلبى للجنرال كليبر. فهى بكل المقاييس ليست حدثاً نذكر قصته بتواريخها وأشخاصها وحبكتها الدرامية، ولكنها ثورة ذات مساحة عريضة من الفكر الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والعقائدى.. هذه المساحة العريضة لا يمكن أن يلم بها إنسان فرد مهما أدعى ومهما كان موقعه، بل لا يمكن أن يلم بها كلها إلا قلة من الناس.. ورأيى أن كل شريحة من شرائح الثورة المتعددة فى أشد الحاجة إلى الكثير من الكتابات بما فيها من اختلاف الرأى والتباين وهذا كله لا يزعج، بل هو إثراء وثراء».

ما قدمه رشاد كامل فى هذا الكتاب مع هذين الرجلين المهمين يصعب تلخيصه والأفضل الاستمتاع بقراءته. ولا يزعم رشاد أن صفحات كتابه قد حلت لغز ثورة يوليو لكنها على الأقل أضاءت جوانب كانت خافية ومجهولة ومحيرة بالنسبة لهذا الحدث الكبير.. والكتاب من إصدارات مكتبة الأسرة وفى مقدمته يكتب رشاد تحية للكاتب الدكتور سمير سرحان الذى يرأس الهيئة العامة للكتاب. قلعة النشر الجاد العالى القيمة فى مصر والوطن العربى.

• فرحة حرب

عندما يأتى أكتوبر أتذكر عندما سمعت خبر الحرب من راديو فى كشك جرائد. قلت إنها بعض الغارات المستفزة التى تقوم بها

الطائرات الإسرائيلية وتهاجم مواقع قواتنا على الجانب الآخر من القناة ويتصدى لها دفاعنا فتفر هاربة.. اشتريت ما أريده من مجلات وواصلت سيرى فى الطريق، لكن البيان الحربى الأول تبعه بيان ثان.. وأيقنت أنها حرب دائرة فأسرعت بالعودة إلى المنزل.. هى إذن حرب بدأت وعبرت قواتنا إلى الضفة المحتلة من قناة السويس.. رفعوا أعلامنا على أرض سيناء، فرحنا.. وكانت فرحة الناس فى بلدى حذرة صامتة وحذرة. إنتابتنى مشاعر مختلطة بالفرح والخوف، وكانت فرحتى حذرة، حتى كلمة إنتصار كنت أرددها بحذر، تعلمنا ألا نأمل كثيراً ولا نهلل كثيراً.. كانت فرحتنا رزينة فى أيام لا تنسى.

• نهاية كل صيف..

لأننا ذهبنا عدة أيام فى نهاية الصيف إلى شاطىء العجمى ووجدنا ثورة الطبيعة، وثورة المجارى!! وانتهاء المصيف لمعظم الناس.. ولأننا نحب الونسة، وجدنا أصدقاء مازالوا فى قريتهم فى الساحل الشمالى فذهبنا إليهم، فى طريقنا مررنا بأعداد كثيرة من القرى لا أدرى هل يسمونها قرى ساحلية أن سياحية!! أشكال وألوان من البيوت: طابق واحد، طابقان، عمارات، قباب، ولأننا فى نهاية الصيف كان معظمها وإن لم يكن كلها مغلقاً.. تذكرت حكاية المرأة الحرامية التى كنا نسمع عنها زمان.. كانت متخصصة فى سرقة حلقان الذهب من الفتيات الصغيرات، تقول للطفلة: «حلقك الذهب يمكن يسرقه أحد.. سألفه لك فى ورقة ولما تروحى البيت تشيليه عند ماما».

وتخلع الحلق من أذن الصغيرة بسهولة التى تصدق كلمات المرأة الحنونة، تأخذ منها قطعة الورق الملفوف فيها حلقها الذهب وتعطيها لأمها مع حكاية المرأة الحنونة، وعندما تفتحها الأم «ترقع» بالصوت لأنها تجد بدلاً من الحلق الذهب قطعتين من الطوب!

سافر آلاف من الشباب والشابات والرجال والنساء من أهل مصر إلى دول النفط فى سنين ازدهارها، وعادوا بالأموال، وكما استقبلت المرأة الحنونة الطفلة صاحبة الحلق الذهب ونصحتها أن تلفه لها لتحفظه من اللصوص، وجد هؤلاء العائدون اليد الحنونة التى استقبلتهم بالإعلانات المبهرة عن الشاطىء الشمالى وقراه الساحرة وليمتلك كل فرد بيتا هناك، وحسب المثل الأمريكانى «كل فرد يذهب إلى الشاطىء».. وهكذا دفعوا أموالهم وأخذوا «طوب» فى شكل مساكن يذهبون إليها عدة أيام كثيرة أو قليلة فى الصيف.. ثم يغلقون مساكنهم فى نهاية كل صيف وتصبح القرى مهجورة طوال العام.

تفرح الأسرة أنها اقتنت بيتاً أو شقة أو فيللا فى إحدى هذه القرى، يذهبون طلباً للراحة والاستمتاع الصيفى، لكن أين الراحة التى ينشدها رب الأسرة! ليس فى المكان محلات كافية لبيع متطلبات كل يوم، وليست بها خدمات كما يجب خصوصاً إذا كانت القرية بعيدة إلى حد ما، أو جديدة بدون استكمال للخدمات! ويذهب رب الأسرة بسيارته.. إذ لابد من وجود سيارة، فلا توجد سيارات للمواصلات صغيرة أو كبيرة، والتنقل من مكان لمكان مسئولية كل مستوطن.. يذهب رب الأسرة إلى قرى مجاورة بها

محلات أكثر تقدماً أو قرى أكثر تقدماً فى المنطقة فيجد القرى الكبيرة التى بها كل مستلزماته ممنوع الدخول إليها إلا بتصريح خاص. أو يدفع تذكرة دخول بعدة جنيهات! والزوجة التى تفرح بهذا الاقتناء تجد الراحة بالنسبة لها سراباً، فهى تقوم بالأعمال التى تقوم بها طوال العام فى بيت المدينة وربما تزداد مثل هذه الأعمال المنزلية هناك!

Every body go to the Beach

هذا المثل الأمريكانى كل فرد يذهب إلى الشاطىء، يستخدمونه للدلالة على أشياء كثيرة فى الحياة وأن لكل فرد الحق فى القيام بها أو عملها. لنأخذه على دلالته الحرفية نجده معقولاً بالنسبة للأمريكان على شواطئهم، لأن كل فرد هناك يذهب إلى الشاطىء ويجد كل ما يريده لحياته هناك، يستطيع أن يؤجر منزلاً أو حجرة أو فيللا أو شاليهاً ومياه البحر والمحيط للجميع، يجد المطاعم والمقاهى وكل الخدمات ليستمتع بأجازته ثم يعود إلى بلده وعمله منتعشاً بالأيام المريحة الجميلة التى قضاها هناك، لا فرق بين غنى أو متوسط الحال، كل فرد يجد ما يريده حسب إمكانياته، المثل معقول هناك ومحقق.. كل فرد يذهب إلى الشاطىء.

أما شاطئ الساحل الشمالى الممتد إلى مدينة مرسى مطروح المطل على جمال البحر المتوسط فى هذه المنطقة من العالم فلا يستطيع كل فرد أن يذهب إلى الشاطئ! وسمعت من الأصدقاء الذين يقطنون فى إحدى هذه القرى الساحلية أو السياحية البعيدة أن الحكومة قررت هذا العام منع بناء مثل هذه القرى وإقامة بنايات بدلاً منها فى صورة

مـسـاكن للإيجـار، مـوتيـلات مـثـلاً وهى الفنادق الصـغـيـة أو فنادق كـبـيـرة، رددت بلا إرادة.. بعـد إيه.. بعـد إيه» قـالوا ضـاحكين بعـد الكيـلو المائة من هذا السـاحل السـاحر.. وتسـاءلـت مـتـشككة: هل ستكون هذه الأمـاكن مـعـقـولة فى إيجـاراتهـا ويذهب كـل فـرد إلى الشاطىء؟!

نهاية صيف عام ٢٠٠٠

وهكذا نقول وداعاً للصيف

مطلع أغنية إنجليزية قديمة.. رومانسية منذ سنوات الستينيات حيث كانت الرومانسية في الحب والحياة تعيش في أمان، يذيعون الأغنية الآن من إذاعة البرنامج الموسيقي، من إذاعات أجنبية كثيرة، أغنية مناسبات مثل أغاني مناسبات كثيرة، أغنية مازالت تعيش تناجي الرومانسية تفهم معنى الشجن: «ياحبيبي سأرسل لك حبي كل يوم في رسالة مختومة بقبلة، سأراك عندما تسطع الشمس كل يوم.. سأراك عندما تغيب الشمس كل يوم.. كما كان يحدث ونحن معاً في أيام الصيف.. الأيام مرت سريعة.. وهكذا نقول وداعاً للصيف».

أصياف كثيرة مرت ومازالت الأغنية لها رنينها الحلو الشجي، لا أدري لماذا بعض الناس يكرهون الصيف؟ حقيقة أصبح الصيف في زماننا هذا شديد الحرارة أحياناً، شديد الرطوبة كثيراً، أصبح مضايقاً ومع ذلك فهو يمضي سريعاً.. وهكذا نقول وداعاً للصيف.

• محاضرة صيف

في آخر الصيف قالت لي ذات الخمسين عاماً إنها التقت برجل في مثل عمرها وظروفه الاجتماعية مثل ظروفها، مطلق من سنين، تحابا وكانت لقاءاتهما جميلة في مدينة ساحلية، لكن المشكلة أن أحلامه مختلفة عن أحلامها، فهي تحلم باستقرار في حب وزواج وصحبة حلوة لسنين حياتها الآن، وهو يخشى الاستقرار، والحب أوقات

سعيدة يقضيها فى الصيف تنعش حياته وتعطيه الحيوية لعمله طول العام، سألتنى كيف تقتحم حياته وتجعل أحلامه مطابقة لأحلامها؟! قالت إنها فشلت فى الحب كثيراً، ولا تريد أن تفشل فى تجربة هذا الصيف، قالت إنها فى هذا العمر لا تجد سوى الحب المريض!

●«تعلمنا من الحياة أنها منافع، فقبل أن نفكر فى اقتحام حياة شخص لابد أن نفكر، بأى شىء سيستفيد منى.. وبأى شىء سأستفيد منه.. فالعلاقات العاطفية لم تعد تقوم على المعانى فقط هذه المعانى المجردة كما كنا نعتقد فى زمن بعيد. زمن الرومانسية. تعلمنا من الحياة أن نستفيد من تجاربنا السابقة، فهل يصح أن نقع فى خطأ وقعنا فيه منذ خمسة عشر عاماً، أو عشرة أعوام أو.. حتى خمسة.. لا يصح.. فإذا كنت أعتدت اقتحام حياة من يعجبك دون النظر إلى ماضى حياته، وإلى ما يمكن أن يستفيده من ارتباطه بك، وإذا كنت صدمت كثيراً من مثل هذا الاقتحام، فلا يصح أن تفعلى هذا الآن، ربما كنت مثل الصخرة فى اقتحامك فيهرب منك الحبيب، كونى مثل ماء الينبوع الرائق، الهادىء، فالماء أقوى من الصخر.

يقول المتشائمون إن الإنسان فى منتصف العمر لا يجد سوى الحب المريض، وهو الحب الخائب، اليائس، الفاشل. المحكوم عليه بالبعد، الحب المريض يصادفه الإنسان فى أى عمر من حياته، المهم كيف يتصرف، هل ينجرف إليه ويمرض أم يختار الصحة فى حب متبادل جميل؟!

سألتنى: هل هذه محاضرة فى الحب؟! قلت: اعتبريها كذلك، أو محاضرة صيف تنسينها بانتهائه.

يصاحبنى شجن مع نهايات الصيف وبدايات الخريف، ربما لبداية انحسار الضوء، وتتدفق الذكريات البعيدة.. يوم ٢٨ سبتمبر ذكرى وفاة الزعيم جمال عبد الناصر، فى ذلك اليوم البعيد كنت بجوار بيته فى زيارة، فى كازينو بعد الزيارة مع صحبة. سمعنا صراخاً. و.. زعيقاً، و.. شجاراً وعلمنا بموت الزعيم، اقترحت صحبتى أن أقضى الليل عندهم فى مصر الجديدة لأن الشوارع ستكون هائجة بالملتاعين، لكن بالخوف، بالحزن والاضطاب أصررت على العودة إلى والدى، وكان المشوار طويلاً، حزيناً إلى حى المنيرة، أرتميت فى حضن والدى، فى الصباح الباكر ذهبت إلى المجلة، بجوار المصعد وجدت صندوقاً ملقى به بقايا حلوى لم يكتمل أكلها فى انتظار من يحملها إلى القمامة، وأجابنى رجل الاستعلامات عن سؤالى، كان زملاء وزميلات صديقتى العزيزة سعاد رضا فى الإدارة يحتفلون بعيد ميلادها بعد انتهاء عملهم فى المساء، وعندما سمعوا الخبر ألقوا بالحلوى وجروا إلى الشارع. قلنا لسعاد بعدها.. لن ينسى أحد يوم عيد ميلادك!

أصياف كثيرة مرت منذ قابلت سعاد رضا ذات صيف فى دار روزاليوسف القديمة، قبل أن تصبح مؤسسة فى بناء جديد كبير، كنت خارجة من الدار وأنا أمر من فناء صغير إلى باب الدار الخشبى الكبير، شاهدت فتاة صغيرة ممتلئة البدن قليلاً ولها ضفيرة خلف رأسها، تحمل حقيبة كتب أو مجموع كتب تضمها إلى صدرها، وتدخل من ذلك الباب الخشبى العريق إلى دار روزاليوسف، التقت نظراتنا، ابتسمت نظراتنا، حدثت رابطة بيننا منذ ذلك الصيف

البعيد، أعتقدت أنها ابنة أحد العاملين فى الدار جاءت إليه بعد انتهاء يومها الدراسى ليصحبها إلى البيت. وتكرر لقاؤنا فى مثل تلك الساعة وتبتسم نظراتنا فى تحية، ولما سألت عنها علمت أنها ابنة فنان صديق للست روزاليوسف توفاه الله وسعاد كبرى بناته وقد وظفتها الست روزا فى حسابات الدار لتساعد أسرتها على المعيشة، يعنى كانت تدرس وتأتى بعد اليوم الدراسى لتعمل، بنت مكافحة يعنى، كانت مثلنا نحن مجموعة الشابات والشباب الذين يدرسون فى الجامعة والمعاهد ونتدرب على العمل الصحفى فى الدار ونفرح بالأجر البسيط على أعمالنا، أعجبنا بسعاد، ولأنها أيضاً تدرس وتعمل مثلنا وإن كانت تصغرنا فى العمر.

كنا من الجيل الذى تفتحت عيونه على شعارات ثورة يولية وأهمية العلم وأهمية العمل، وتحرر البنات بتحررهن الاقتصادى، والحرية هى حرية فكر وثقافة ومسئولية، وليست حرية تصرفات غير مسئولة، كنا من الجيل الذى علمه الآباء والأمهات تحمل المسئولية، حتى وإن كانت مجرد مسئولية تحمل نفقات بسيطة للصرف على نفسه، كنا فى دار روزاليوسف القديمة مثل أبطال فيلم إيطالى كان مشهوراً فى ذلك الوقت «فقراء.. لكن ظرفاء»، نقودنا كانت قليلة لكن حبنا وتعاطفنا مع بعضنا كان كبيراً، ومرحنا وضحكاتنا وأمالنا وأحلامنا كانت تصل إلى السماء، ولم يمنعنا هذا عن العمل بجدية والدراسة بمسئولية، بل دفعنا إلى النجاح فى الاثنين، فى ذلك الجو الحميم تربت سعاد رضا الفتاة الصغيرة ذات الضغيرة التى أصبحت الآن المدير العام وعضو مجلس الإدارة فى مؤسستنا العريقة.

قال : «علمت أنك خنتني هذا الصيف».

قـالت : «لم أخنك . أنت الذى دفعتنى بعيداً عنك . سحبت من تحت قدمى هذا البساط السحرى المسمى بالأمل سحبته بقسوة ، بقوة فوقعت على وجهى . جرحتنى ، أقنعت نفسى أن نكون صديقين كما تريد ، يااللمهزلة ، لكنى لم أستطع الوقوف على أرض باردة ، أحب أن أقف على بساط سخى بدفء الأمل ، وهكذا هربت من أرضك الباردة لأقف على أرض دافئة ، ولم أتعجب من تحول العاطفة ، فالقسوة وعدم الاهتمام يزيلانها ، والحب مع الأمل يحولانها . . وها أنا أحلم به كما كنت أحلم بك ، أشتاق إليه كما كنت أشتاق لك ، وياالقسوة الزمن عليك فأنا أفكر فيه الآن وأنا أتحدث معك ، ولم أعرف صوتك فى الهاتف لأنى كنت انتظر صوته هو ، دفعتنى لغيرك فلا تقل إنى خائنة».

قال : «هذا حب صيف سينتهى بانتهائه وأماله زائفة».

قالت : «حددنا موعد زواجنا فى نهاية هذا الصيف».

و . . . صمت .

نهاية صيف عام ١٩٩٩

أحاديث مثقفات

•غيرة

قالت «أ»: ألف مبروك أخيراً تحقق حلمك كيف أخفيت هذا الخبر عنا ثلاثة أشهر ؟!

قلت «ب»: اتفقت مع زوجي ألا نعلن عنه إلى أن نطمئن على ثبات الحمل بعد هذه الفترة التي حددها لنا الطبيب المعالج، وشاهدنا على الشاشة صورة هذا المخلوق الجميل الذي ينمو بداخلي.

قالت «أ»: صوتك ليس فرحاً بهذه التجربة المثيرة!

قالت «ب»: كنت فرحة إلى أن صدمت بموقف ابنة خالتي صديقة عمري، تعرفين أنها تزوجت قبلي بسنتين وبدأت علاجاً طبياً وبعد الزواج بسنة يعني هي تمارس العلاج من أربع سنوات لتنجب.. الغريبة أنني أيضاً بعد سنتين من الزواج لم أنجب، فاقترحت على الانضمام لها في مسألة العلاج هذه، كان معنا زوجانا للاختبارات والتجارب وكل هذه المشاكل، كنا نذهب جماعة لهذه المشاوير كأننا نذهب إلى نزهة، نساند بعضنا، نتغلب على مللنا بضحكات ونكافيء صمودنا بسهرة ممتعة في مكان ما، الذي حدث أنني بعد سنة من العلاج حملت، لا أدري لماذا شعرت بالذنب! وخفت مصارحتها، ساعدني على الصمت رأي الطبيب للتأكد ورأي زوجي بالتريث، وقد فهم الطبيب أننا لا نريد أن نخبر أحداً إلى أن تمر تلك الفترة، وربما فهم ما أقصد فقال كلمات تعجبت لها، أن معي حق

فحساسية المرأة تجاه خصوبتها قوية، ولا تأخذها ببساطة.. وهذا ما حدث، قلت الخبر لها بالتدريج وببساطة، عندما جاء موعد ذهابنا إلى العلاج، وكنت فى الشهر الثانى من الحمل، أخبرتها أننى لن أذهب لأنى يخيل لى أنى حملت، فسخرت منى، إن كل هذه الأعراض قد شعرت هى بها خلال أربع سنوات وكانت واهمة، فلم أعلق إلى أن تأكدت بعد ثلاثة أشهر وأخبرتها.

قالت «أ»: وشعرت بغيرتها منك برد فعلها.

قالت «ب»: غيرة ربما.. اتهمتنى بالخيانة وأننى لست صديقتها حقيقة، وأن تقاربنا طوال سنين عمرنا بحكم قرابتنا لا أكثر، ومادمت أخفيت عنها شيئاً مهما فى حياتى هكذا، فلابد أننى أخفيت عنها أشياء كثيرة من قبل، وأنها لا تريد صديقة خائنة فى حياتها، اتهامها ألجمنى، لم أرد عليها أو أناقشها وأكدت شعورى بالذنب لأنى حملت وهى.. لا.

قالت «ا»: كل ما قالته انفعال غيرة، فلا داعى للشعور بالذنب، افرحى ليفرح طفلك وهو ينمو داخلك، مشاعر الأم تصل لجنينها، تقبلى غضبها ومقاطعتها لك إلى أن تستوعب الموقف وتراجع نفسها، وتتصل هى بك، الحقيقة كان يجب أن تخبريها لتشترك معك فى فترة القلق قبل التأكد، ربما كان هذا يعطيها الأمل فى نجاح محاولاتها، أما إخفاء الخبر عنها هذه المدة جعلها تظن أنك تخفين عنها مثلاً خبر أنها هى لن تحمل!

قالت «ب»: لم يخبرنى الطبيب عنها أى شىء سوى أنه يأمل فى نجاح علاجها هى الأخرى.

قـالـت «أ» : المهم افـرحي بهـذه التـجـربة التي انتظرتهـا والوقت سيصلح كل شيء بينكما.

قلات «ب» : أعتقد أن صداقتنا لو عادت لن تكون كما كانت، شرختها الغيرة وكسرها الشك.

• حسرة

قالت «أ» : كلما مررت من هذا الطريق خلف هذه العمارة الراسخة أمام نيل بلادنا أتحسر على كبيرتنا، كان يمكن أن تكون من سكان هذه العمارة الراسخين، كان يمكن أن تعيش حياة مثمرة، ليس فقط بالمادة، بالحب بالمجتمع المثقف، لكنها قالت بتأفف في ذلك الزمن البعيد أنها لا تتزوج صديقاً لأبيها، قالوا لها إنه ليس في عمر أبيك، يصغره كثيراً، قالت لكنه يكبرها حتى وإن كانت عشر سنوات فهو مطلق وأنها أنثى جميلة، ولم تتزوج من قبل، قالوا لها : إنه يحبك ويعرف ظروف أبوك، قالت بعنجهية أنها تريد الزواج من شاب تنعم به ومعه بحياتها . . وماذا كانت حياتها؟

قالت «ب» : ربما كانت تحب ذلك الشاب الذي تزوجته.

قـالـت «أ» : لم يكن حبـا . . بهرها شكله ورجولته كما بهرته أنوثتها، وحبسها في سجن غيرته، كما خنقته بذراعي غيرتها، وأحاطت نفسها بجهالة نساء نصحنها بربطه بأبناء، فأنجبت خمسة، تخيلي كيف أصبحت حياتها وصحتها، وتخلت عن ثقافتها وانحدرت إلى سوقية التفاهات وتتعجبين أنني أتحسر عليها ! !

قالت «ب» : وهل هي الآن تتحسر على ذلك الرجل الذي رفضته كما تتحسرين أنت ؟ !

قالت «أ» : الحمقى يفخرون بأخطائهم.

قالت «ب» : معظم النساء فى حياتهن رجل يتحسرن أنهن لم يرتبطن به فمن الذى تتحسرين عليه؟

قالت «أ» : من أردت الارتباط به لم يتقدم لى، فكيف أتحسر عليه؟

قالت «ب» : هل أعرفه؟

قالت «أ» : إنه لا أحد.. لأنى لم ألتق به!!

قالت «ب» : انتبهى لسيارتك سندخل فى نفق.

•هلوسة

قالت «أ» : هذه الأيام يعترينى شعور بالخوف كأنه مرض.

قالت «ب» : الخوف شعور طبيعى فى الإنسان، لكن إذا زاد لابد من البحث عن أسبابه وعلاجه وإلا أصبح الإنسان يخاف من ظله.

قالت «أ» : ربما أخاف الزمن.

قالت «ب» : القلق على المستقبل، الجزع من المجهول، الحاجة للشعور بالأمان.. كلها تتجمع فى الخوف من الزمن.

قالت «أ» : أخاف من الزمن فى معنى كبر السن.

قالت «ب» : قرأت قريباً كتاباً لأحد رؤساء أمريكا السابقين، جيمى كارتر، بعنوان «مميزات كبر السن»، يتحدث فيه عن حياته مع زوجته فى هذا العمر، وكيف يستمتعان بوقتهما ويزاولان هواياتهما، والمهم يتقبلان عمرهما، أعجبنى تساؤله فى مقدمة الكتاب متى نكون كبار السن؟ قال: إن الإجابة الصحيحة هى أن كلا منا كبير فى السن عندما يفكر أنه كذلك، عندما يعتمد على الآخرين، عندما يهمل نشاطه الجسمانى والعقلى، عندما يقبل وضع

السكون فى حياته ويغلق نفسه فى دائرة محدودة من الذين يتعامل نعهم.

قال كارتر إن التجارب علمته أن كبر السن لا يرتبط بعدد السنين التى عشناها.

قالت «أ»: معنى هذا أن ننسى عمرنا، لا نلتفت إلى ما وصلنا إليه من سنين؟!

قالت «ب»: نعيش حياتنا بطبيعتنا ولا نعكر مزاجنا ونزعج تفكيرنا بهلوسة الخوف.

قالت «أ»: يعنى مثلاً نقترب من الستين ونحلم بالمستقبل! نسمع أغنية الحبيب المجهول كأننا ننتظر لقاءه! نكد فى عملنا كأننا سننال ما أخفقنا فى الحصول عليه فى السنين الشابة! ننتظر بشغف أملاً جديداً فى حياتنا.

قالت «ب»: لم.. لا.. هذا أفضل من أن تقومى فى الصباح مكتئبة من أحلامك المزعجة الناتجة عن الخوف الذى تحتضنينه طول الليل.

قالت «أ»: يعنى نضحك على أنفسنا؟!

قالت «ب»: نقنعها.. أقول لك تجربة يقوم بها الأطباء النفسيون فى علاج بعض المرضى. إذا قلت لنفسك أو إذا ضحكت عليها كما تقولين، وقلت مثلاً، أنا قوية، أنا حلوة.. أنا محبوبة باقتناع وثقة يحدث أن جزءاً خاصاً فى الكومبيوتر الذى فى مخك يتغذى بهذه المعلومات وينقلها إلى خلايا معينة فى جسمك، أنا لا أعرف تماماً هذه التفصيلات العلمية، المهم الحصيلة أنك تشعرين بما تقولينه.

قالت «أ»: بهذه البساطة.

قالت «ب»: ليس ببساطة بل بتدرب واقتناع جربى.

قالت «أ» ضاحكة: أنا لست خائفة أنا شابة، أنا حلوة.

قالت «ب»: إضحكى فالضحك يفيد جهاز المناعة.

قالت «أ»: قرأت هذا وتعجبت من الأطباء الذين يصرحون كل يوم بأشياء غريبة عن الصحة والمرض.

قالت «ب»: كثر الكلام العلمى عن الضحك وفوائده فى السنين القريبة مع أن هذا معروف من زمن كنا نسمع أن الضحك يجرى الدم فى عروقنا بمعنى أنه ينشط الدورة الدموية، وما اكتشفوه حديثاً أن تنشيط الدورة الدموية يفيد جهاز المناعة فى الجسم، والضحك أحسن منشط.

ما رأيك فى مشاهدة فيلم مضحك أو مسرحية قبل أن تنامى، أحسن دواء لهلوسة مخاوفك.

قالت «أ»: اشترى الضحك يعنى؟

قالت «ب»: كل الناس تشترى الضحك يتجهون بغريزة حب الحياة إلى الأفلام والمسرحيات الفكاهية، ليخففوا من أعباء حياتهم وهمومهم اليومية، وأعتقد أن رواج هذه الأفلام والمسرحيات الآن رد فعل لأخبار وأحوال العالم الكئيبة حولنا.

ليلة بيضاء مُقمرة

هذا العنوان من بيت شعر عربى قديم لا أعرف من كتبه من الشعراء القدامى، وجدته ضمن قصاصات شعرية أحتفظ بها، يقول الشاعر: «هل لك فى ليلة بيضاء مقمرة.. كأنها فضة ذابت على البلد». وهذه حكايات دارت فى ليلة بيضاء مقمرة.

● فرحة.. خوف وقلق

فردنا الخريطة أمامنا، نتابع تحركات قواتنا من البيانات العسكرية، نرسم جسور العبور على ضفتى القنال، التقت عينانى بعينيها وتبادلنا ابتسامة، لقد حكت لى قصة حبها لمهندس ضابط كان ضمن فريق بناء جسور العبور، وكان عليه أن يتواجد فى موقع الحرب، رفعت رأسى إلى الوجوه المحيطة والآذان الصاغية للإذاعات، التقت عينانى بعينيها، كانت سارحة، اقتربت منى. همست فى أذنى. «تخيلت وجهه بين الوجوه الآن.. احتضنته بعينى»، احتضنتها بذراعى، وأغرورقت عينانى، رشفت من فنجان قهوتى، كانت باردة، قلت لها هامسة: رموز الأحلام كلها موعدة بالأمل.

قال أحد الزملاء: «أحيانا يتغير تاريخ العالم فى فترة زمنية قصيرة».

قلت: «فى تاريخ قصير يمكن أن تتغير حياة الإنسان وموقعه من نفسه ومن الذين حوله ومن العالم كله».. قال آخر: «أحياناً تكون الأيام السبعة للأسبوع فترة زمنية طويلة عندما تكون مشحونة

بالأحداث.. إننا فى اليوم السابع للحرب وكأن مر علينا سبعة أشهر».

وقال غيره: «ربما هذا التاريخ الذى نعيشه هذه الأيام سيكون له تأثير كبير على حياتنا».

كان ذلك الحديث فى ليلة بيضاء مقمرة فى أكتوبر ١٩٧٣ أثناء حرب استعادة الكرامة والأرض.

• من مذكرات تلك الليلة..

«القمر اليوم بدراً.. القمر لا يتغير هو الذى كان بدراً الشهر الماضى وهو الذى كان بدراً فى السنوات الماضية، فى كل سنى حياتى تأتى ليلة يكتمل فيها القمر، لكن أنا التى أتغير. استقبله بفرحة بخوف بحزن أو بتوتر. الليلة أغلق نافذتى حتى لا أراه، لا أنظر إلى السماء حتى لا أراه مع أنه ينير مدينة مظلمة، لكن النفس قلقة والشعور بخوف ووحشة.. أحياناً أشعر بارتياح داخلى وأن النعمة حقيقة ستذهب ستنزاح وسنعيش فى سلام. لقد احتملنا الذلة كثيراً والآن نسترد كرامتنا وسيتحسن حالنا، وأحياناً لا استطيع أن أشعر بهذا الارتياح، أشعر بخوف وقلق، اليوم السابع والحرب دائرة.. سمعت فى إذاعة معلقاً سياسياً قال إن إسرائيل كانت تعتمد فى قوتها على الحرب الخاطفة بطائراتها. أما حرب المواجهة هذه الطويلة فهى وبال عليها.. هل هذه حقيقة؟ إننا لا ندرى شيئاً سوى أن اليوم هو السابع ومازالت الحرب دائرة».

• حب وأمان

قال : ضعى رأسك على صدرى لأشم رائحة شعرك . أحب رائحة شعرك .

قالت : لنصنع صورة من صور الكلاسيكيات ، ينقصها ملاك كيوبيد بقوسه وسهمه يشير إلى قلبينا . . ضحك .

قالت : أحب ضحكتك .

قال : وأحب شطحات خيالك . . حقيقة لابد أن نغرق فى الخيال من وقت لآخر حتى . . .

قاطعته : لا داعى للفلسفة الآن .

قال : الآن هذه . . ستمضى عليها أيام وشهور .

قالت : وستكون علامة من تاريخنا معاً .

قال : لماذا اخترتنى من بين كل الرجال ؟

قالت : ولماذا اخترتنى ؟

قال : على مدى الفترات المتباعدة التى التقينا فيها أعجبت بك .

قالت : دارت بيننا أحاديث كثيرة .

قال : وأحاديث صامتة .

قالت : وتفجرت عواطفنا فجأة .

قال : لا شىء يحدث فجأة . . هل هذا القمر الذى يضىء ليلتنا يكتمل فجأة .

«وكانت ليلة بيضاء مقمرة» .

• هل انتهى عشق القمر؟!

تذكرت كلمات صديق من بلد عربى عريق أنهم ينامون فوق

أسطح بيوتهم فى ليالى الصيف، خصوصاً فى الليالى القمرية، وفهمتَ لماذا العرب كانوا ينظمون شعراً عن السماء والنجوم والقمر. فهل انتهى عشق القمر واختفى من أشعار الشعراء بعد أن صعد الإنسان إليه، وشاهدوه بالصور المقربة كوكباً مظلماً مليئاً بالجبال والحفر. وجهاً قبيحاً مصاباً بداء الجدرى؟! فمن الذى يصف وجه حبيبته بالقمر بعد ذلك؟

بالرغم من أن القمر كانت له هيبة عظيمة فى قرون ماضية وكان معبوداً فى مناطق كثيرة من العالم، إلا أن الشاعر الفرنسى «ألفريد دى موسيه» كانت له رؤية مختلفة عن القمر، فقد صوره فى إحدى قصائده فى القرن التاسع عشر قبيحاً مظلماً كما صوروه فى القرن العشرين بواسطة الذين صعدوا إليه أو بالصور المكبرة المقربة، ومن كلمات قصيدته:

«يا قمر.. إيه روح كئيبة تهيم.. معلقة بخيط مثل البالون.. فى ظلام الفضاء الرحب.. عارضاً وجهك كاملاً أو.. من جنب.. أتراك عين للسماء.. يالك من ملاك صغير مرائى.. تغمز لنا بعين واحدة.. من وراء قناعك الأبيض الكابى.. أم تراك لست إلا كرة مكعبرة.. أم عنكبوت الحقل ضخماً كالكتلة المكورة.. مدحرجاً.. لا ساق له ولا ذراع.. أم أنت..

وذلك وهم ظنونى.. وجه لساعة من حديد قديم.. ساعة دقاقة».

فهل كان الشاعر «دى موسيه» صور القمر هكذا بشعور الفنان الحساس الذى يتنبأ بالمستقبل وماذا سيكون عليه.. أم كان يسخر من شعراء الرومانسية فى ذلك الوقت؟

كانت الأشعار قديماً المقروءة والتى يتغنون بها مليئة بعشق القمر، وقد كانت أغنية أم كلثوم «هلت ليالى القمر» التى كتبها أحمد رامى نتغنى بها فى ليالى القمر عشقاً وطرباً.. و«تعالى نسهر سوا فى نور بهاه» وقد كتب «رامى» قصيدة جميلة عن القمر وعشقه لا أدرى لماذا لم تشدو بها أم كلثوم؟

ومطلعها:

ظللت أعد ليالى القمر — وأرتقب البدر حتى ظهر
وفى القلب أمنية للقاء — وفى النفس عاطفة للسمر
أسوق إليك حديث الشجون — وأشكو إليك صروف القدر
وأرسل شعرى على مزهرى — فأسمع منك حنين الوتر.

لم نعد نقرأ أو نسمع شعراً جديثاً عن القمر إلا فى القليل النادر! لقد امتلأ فضاء الكون بالأقمار الصناعية.. هذه الأقمار التى ألهت الناس عن النظر إلى القمر الحقيقى، بسهرهم أمام شاشات التليفزيون لمشاهدة ما تنقله لهم هذه الأقمار من أخبار العالم والحوادث وقت حدوثها، والحروب وقت نشوبها، غير الأفلام والبرامج وكل ما تبثه محطات العالم، كما امتلأ الفضاء بأقمار التجسس..وأقمار التنبؤ بحالة الجو ورصد السحب واتجاه الرياح وسقوط الأمطار.. وأقمار لقياس القارات وجزر المحيطات.. أقمار صناعية كثيرة انتشرت فى فضاء الكون حتى أصبحت مثل العقد حول الكرة الأرضية، وبالرغم من أهميتها التى تزداد يوماً بعد يوم.. وبالرغم من أهمية أو عبثية ما تبثه لنا على الأرض إلا أنها لا تستطيع أن تنافس قمرنا الطبيعى القديم من الأزل.. ولا تفرحنا من وقت لآخر بليلة بيضاء مقمرة.

كلمات..!

• كلمة حظ

معظم الناس يحرصون كل صباح على قراءة حظهم اليوم فى الجرائد.. بعضهم يعتبر قراءته نوعاً من التسلية والابتسامة الصباحية، والبعض يتصرفون حسب ما يقوله لهم حظهم فى البرج الذى ينتمون إليه.

يسعدون أو يغتمون أو يفعلون ما يمليه عليهم وإن كان خطأ، أو لا يناسبهم، ولأنى مولودة بين برجين فأحرص على قراءة حظى اليومى فى هذين البرجين، واختار الكلمات التى تبهجنى، نوع من التسلية الصباحية لأبتسم، كلمات الحظ هذه معظمها كنصائح الأمهات مثل: إضحك تضحك لك الدنيا.. الصبر نصف الإيمان.. من جد وجد.. وهكذا.

فى أزمان بعيدة كان للتنجيم شأن كبير فى حياة الرعاة، فهم فى النهار يلاحظون أغنامهم، وفى الليل يراقبون النجوم، وقد تنبأوا للمستقبل بواسطة النجوم خصوصاً بالنسبة لأغنامهم، فقد وجدوا أنه عندما تظهر النجوم اللامعة لبرج الحمل تتكاثر الأغنام وتنمو الحشائش، والمعروف أن هذا البرج مع بداية الربيع وازدهار الزرع وموسم لتزاوج الحيوانات وعندما يظهر برج العذراء تقل الحشائش وتضمر الأغنام وأحياناً تموت.. والمعروف أن هذا البرج نهاية الصيف وبداية الخريف. وقد ربطوا بين هذه الأحداث وظهور النجوم كانت

حياتهم تعتمد على التنجيم فى أعمالهم ومسائلهم الشخصية وكان لهم عذرهم.

كلمة الحظ هذه تلفت نظرى مع بدايات كل عام وانتشار الكتيبات التى تحتوى على طالع الأبراج، كل برج على حدة لعام كامل وحظ كل فرد فى كل برج على مدار العام! وتنتشر أيضاً تنبؤات جهابذة المشتغلين بالأبراج بالتنبؤ بالأحداث العالمية!! أنا أحترم علم الفلك وإن لكل برج مميزاته الخاصة به وتأثيرها على المولودين تحت هذا البرج، أما مسألة ماذا سيحدث لمواليد كل برج فى كل يوم على مدى عام فهو شيء خطير ومضحك أيضاً إذا اتخذ الفرد هذه الكلمات بجدية.

• كلمة وحدة

أحياناً يختار الفرد الوحدة فى حالة إنجازه لعمل ما، إبداع فنى فى مختلف الفنون، اختراع علمى فى مختلف العلوم، فهو يحتاج لهذه الوحدة الاختيارية لفترة زمن تطول أو تقصر، المهم أن يعود الفرد بعدها إلى ناسه ومجتمعه، هذه الوحدة الاختيارية لا تسبب ضرراً للفرد بل تمنحه سعادة الإنجاز الذى قام به.

وقد كان اختيار الوحدة الطويلة فى الأزمان القديمة يعطى للفرد مشاعر إيجابية وربما جميلة.

مثل وحدة المتصوفين العظام فى التاريخ، وكانت بعض القبائل الهندية فى تلك الأزمان ترسل شبابها بعيداً ليعيش الشاب فترة عزلة تامة قبل أن يدخل فى مرحلة الرجولة، فكانت تلك الوحدة تصور

للناس خيالات معظمها جميلة وتعطيهم نوعاً من الإلهام لحياتهم. فكانوا يتركون الشاب مع تلك الخيالات باعتقادهم أن ضمنها سيجد الشاب إلهاماً يقوده فى طريق الرجولة.

أما الشعور بالوحدة فهو ليس اختياراً، أحياناً يشعر الفرد بالوحدة وسط الناس أو بجانب أقربهم إليه، ويرجع هذا الشعور إلى عدم استطاعته التأقلم مع مجتمعه، أو عدم التوافق مع أقرب الناس إليه، وإذا كان اختيار الفرد للوحدة يعطيه إلهاماً وإنجازاً فالشعور بالوحدة يجعل الفرد يتخيل أشياء وأحداثاً غالباً سيئة. إنه - مثلاً - مضطهد.. غير محبوب.. خيالات أغلبها سلبية يغلفها الخوف، خوف من الفقد. الحوادث. عدو خفى، مرض.. فقر.. مثل هذه الخيالات تزيد من شعوره بالوحدة، وقال المتخصصون فى علم النفس الحديث أن الشعور بالوحدة ازداد فى هذا الزمن المادى والمجتمعات المعقدة، وقد قرأت لأحد هؤلاء نصائح جيدة حتى لا يقع الفرد فى هذا الشعور المخيف للوحدة.

لا يصح أن ينتظر الفرد من الحب الضمان النفسى بعدم الشعور بالوحدة وعناية الطرف الآخر بحياته إذا لم يكن لدى الفرد نفسه هذا الضمان.. كيف؟! أن يكون الفرد أولاً أحسن صديق لنفسه.. كيف؟ أن يتولى الفرد أمر العناية بحياته فهذا لن يفعله أحد له.. كيف؟

إن يفهم الفرد نفسه، يعرف من هو، وأى شىء يستطيع عمله، وأى شخصية يكونها. أن يحترم الفرد نفسه ويعجب بها وليس بمعنى الأنانية أو الغرور والنرجسية، عندما يتعلم الفرد كيف التعامل

مع شعوره بالقلق والشك سيجد نفسه أكثر حرية فى رؤيته للحياة ومواجهة تحدياتها. سيجد فى نفسه الشجاعة ليستخدم قوته النفسية والذهنية والقدرة على الإبداع هذه المميزات يشك معظم الناس أنها موجودة لديهم لذلك يشعرون بسلبيات الوحدة.

وما الحظ الجيد إلا قدرة الفرد على الإبداع ومواجهة التحديات وعمل الخير لنفسه، وليس معنى أن يكون الإنسان أحسن صديق لنفسه هو أن يستغنى عن صداقة الآخرين والحب.

بل عندما يكون صديقاً لنفسه يستطيع أن يحب أفضل ويقيم صداقة مع الآخرين أفضل.. ومن جهة أخرى يستطيع أن يجد القوة لمواجهة شرور العالم الآن.

أقول إن الإنسان يحتاج أن يكون وحيداً لبعض الوقت لكنه يكره الشعور بالوحدة.

• كلمة اعتذار

كثيراً ما نحتاج من الآخرين إلى كلمة اعتذار، وكثيراً ما يحتاجون منا إلى هذه الكلمة فهى تضفى على العلاقات الإنسانية معنى جميلاً، وليست كلمة الاعتذار دليلاً على ضعف المعتذر كما يفهم بعض الناس، بل هي تعطيه قوة، كلمة اعتذار نجدها محذوفة كثيراً بين الزوجين، أحياناً تعتذر الزوجة لمجرد إرضاء الزوج ونادراً ما يعتذر هو.. قالت لى زوجة إنها محظوظة لأنها تزوجت من رجل لم يخطىء لمدة عشر سنوات، فهو لا يعترف بأى خطأ من ناحيته حتى وإن اجتمع خمسون شاهداً ضمنهم أمه على أنه مخطىء.

بعض الناس يجدون صعوبة في قول كلمة اعتذار، بينما لا يجدون صعوبة عندما يخطئون في حق الآخرين، أو يجرحون مشاعرهم، فهم يجدون أنهم دائماً على حق ويجدون المبررات للدفاع عن أنفسهم.

كلمة اعتذار يكون لها معنى أو لا يكون حسب استقبالها من الآخر، مثلاً يقول المعتذر كلمة اعتذاره عن شيء حدث منه أخيراً فيتقبلها الآخر بثورة ويعدد كل أخطاء المعتذر السابقة وربما لسنين مضت.

وكأنه يريد مزيداً من الاعتذار والندم أيضاً، الفرد عندما يعتذر يحتاج أن يتلقى من الاخر تسامحاً.

أحياناً يؤجل الفرد كلمة اعتذار للآخر حتى يمر بعض الوقت وتهدأ ثورة غضبه، وأحياناً يؤجل الآخر تسامحه مع المعتذر ليزيد شعوره بالذنب! وحتى تتم العلاقات الإنسانية بالسلام بين الناس فالأفضل عدم تأجيل كلمة الاعتذار وأيضاً التسامح حتى لا تصبح الحياة ثقيلة لا تحتمل خصوصاً بين الزوجين.

أحياناً تكون كلمة الاعتذار غير موفية بغرضها وغير مريحة للآخر.. مثلاً يقول المعتذر إنه يعتذر لكن.. هذه الـ«لكن».. تحمل أن المعتذر قال كلمة اعتذاره لأن قلبه كبير لكنه لا يعترف بخطئه!

كلمة اعتذار صغيرة تحمل معاني كبيرة، أو كما كانت تقول أمي «تمنع بلاوي كتيرة»، فلماذا نحذفها من حياتنا؟!!.

الجزء الثالث

أنا والكتب

من يقول لهم اتركوا الحرب واتجهوا للسلام؟!

هذا مقطع من أغنية فى فيلم إسرائيلى من أفلام الأصوات المعارضة للسياسات الإسرائيلية، وهو ضمن أفلام الفصل الخامس من كتاب الناقد السينمائى والصديق الغنى عن التعريف رءوف توفيق وهو كتاب «سينما اليهود.. دموع وخناجر».. ربما بشىء من التفاؤل أعرض آخر فصول الكتاب أولاً.. ففى هذا الفصل الأخير من الكتاب يتحدث رءوف عن أفلام المعارضة داخل إسرائيل.

«على الجانب الآخر من الصورة تظهر داخل إسرائيل أصوات معارضة للسياسات الإسرائيلية فى الحروب والتوسع الاستيطانى واحتلال الأرض، وتدعو هذه الأصوات إلى تحقيق التوازن بين الإسرائيليين والفلسطينيين وإقامة علاقات ود واحترام».

من هذه الأصوات المخرج الشاب «ياكى يوشا» ويتحدث رءوف عن فيلم «النسر» الذى أخرجه هذا الشاب وعرض فى مهرجان «كان» عام ١٩٨١ وهو يبين خلال فيلمه الفرق بين الوهم والحقيقة، ويقول المخرج: «هذا الفيلم يفضح صناعة الموت التى تقف خلف الحروب الإسرائيلية، فإسرائيل هى الدولة التى تعتبر الحرب هى القاعدة وليس الاستثناء»! وكما تردد أغنيته فى آخر الفيلم:

«لقد أوهموهم أن الحرب جميلة.. لقد ضحكوا عليهم.. إنهم ذاهبون للموت وستشرق الشمس على قبورهم.. فمن يقول لهم اتركوا الحرب واتجهوا للسلام؟!».

ويحدثنا رءوف عن مخرج شاب آخر إسرائيلى «دانييل فاتسمان» أخرج فيلم «الخماسين» عام ١٩٨٢ الذى وصفه بعض نقاد الغرب بأنه أجرأ فيلم إسرائيلي يناقش المسألة العربية الإسرائيلية، فهو يعبر عن الحلم الكاذب بالتعايش السلمى ذلك لأنه لا يمكن أن يكون هناك تعايش من طرف يعتبر الأرض مجرد سلعة تُباع وتُشترى ويأخذ سلاح القتل والعنف وسيلة لإثبات وجوده وتفوقه!

• الفيلم الوثائقى يفضح إسرائيل!.

إنها مجموعة من الأفلام الوثائقية التسجيلية للمخرج الشاب الإسرائيلى «آموس جيتاى» يبين خلالها رؤيته فى أشكال التفرقة بين الإسرائيليين والعرب على أرض فلسطين. ففى عام ١٩٧٩ قدم فيلماً وثائقياً عن ثورة يهود المغرب المهاجرين حديثاً إلى فلسطين، وكان الفيلم بعنوان: «أحداث العنف فى وادى صليب».. وفى عام ١٩٨٠ قد فيلم «البيت» الذى يرمز للقضية الفلسطينية حيث نرى أحد البيوت القديمة والذى كان ملكاً لعائلة فلسطيية ثم صدر القرار بهدم البيت استعداداً لبناء بيت جديد لرجل إسرائيلى! وفى عام ١٩٨٢ قدم فيلم «يوميات حملة» كتحقيق سينمائى مصور على الطبيعة يوضح مدى العنف فى الجيش الإسرائيلى داخل مدن وقرى الأرض المحتلة، وقد وضع المخرج الكاميرا أمام الجنود الإسرائيليين وسجل كل تصرفاتهم وكلماتهم.. الغطرسة والشراسة فى كلماتهم وهم يحاولون منع التصوير.. وخطف الكاميرا وعندما يناقشهم المخرج والحوار بينهم مسجل بالكامل فى الفيلم.. إن هذا ليس من حقهم، فيكون رد فعل أحد الجنود أنه يضع يده على عدسة الكاميرا

وتظلم الشاشة.. وتبدو أحياناً ملامح الصورة من وراء أصابعهم، ثم ينطلق المخرج بالكاميرا إلى بيوت العرب وأرضهم المسلوبة وأشجارهم التى زرعها الأجداد وأصبحت الآن فى قبضة الجنود الإسرائيليين.. وحركة بناء المستوطنات الإسرائيلية.. وأحد المستوطنين يقول بغطرسة وغباء أحمق: «لا يمكن أن تعيد الحكومة هذه الأرض للعرب» وتلتقط الكاميرا أطفال هذ الرجل وهم يلعبون فى هذه الأرض ومعهم كلبهم الصغير.. بينما فى مكان آخر قريب بعض النساء العربيات يدرن فى حلقة ينشدن أهازيجهن الحزينة الباكية عن الأرض المفقودة.. وصوت أحد الجنود الإسرائيليين يقول: «علينا أن نضرب العرب ولا ننتظر أن يحاربونا» يرد عليه جندى آخر يبدو أنه من جناح معتدل: «لا أوافقك الرأى. لماذا لا نعطيهم أرضهم ونعيش فى سلام؟».

وهكذا يمضى الفيلم الوثائقى الذى سجل كل لقطاته بلا إعداد مسبق بل ترك كل شىء كما يحدث فى الواقع لنخرج بانطباع أكيد أن هذه القوة الإسرائيلية لا تستند إلا على العنف والقهر وأن الاستيلاء على الأرض وتغيير ملامحها هو هدفهم الأساسى لقطع الجذور.

• سينما اليهود فى مهرجانات «كان»

لقد شاهد رءوف توفيق برؤية الناقد السينمائى على مدى سنوات طويلة العديد من الأفلام من مختلف الجنسيات تتناول موضوع اليهود بشقيه، التعذيب والاضطهاد.. ثم التفوق العنصرى، شاهدها

خلال مهرجان «كان» السينمائى، جمع معظمها فى هذا الكتاب، ففى الفصل الأول جمع عدة أفلام من إنتاج بلاد مختلفة فى العالم عن اضطهاد اليهود وضرورة تكفير العالم! وفى الفصل الثانى يتحدث عن أفلام التفوق العنصرى.. مثلاً فيلم «عربات النار» وهو من الإنتاج الإنجليزى يقول رءوف:

«إن الشخصية اليهودية على الرغم مما لاقته من اضطهاد وتعذيب وتشريد كما يدعون، إلا أنها الشخصية المصممة على الحياة القادرة على التحدى والفوز.. وهذا الفيلم يعلنها صراحة فى كل ثانية من مدة عرض الفيلم يؤكد أنه مع هذا البطل الرياضى اليهودى الذى يريد أن يحقق النصر دفاعاً عن وجوده وكيانه وعندما شاهدت الفيلم داخل مهرجان كان عام ١٩٨٠ لم أتمالك نفسى من شدة الصدمة عندما قرأت اسم دودى فايد العربى الأصل كمنتج منفذ لهذا الفيلم»!

وفى الفصل الثالث من الكتاب يتحدث رءوف عن صناعة السينما فى إسرائيل ويسرد عدة أفلام شاهدها خلال مهرجان «كان»، ويتحدث عن فيلم «ارتداد القذيفة» الذى عرض فى عام ١٩٨٦ وهو من إنتاج الجيش الإسرائيلى.. ويقول المخرج إن الفيلم يتناول أخلاقيات الجيش الإسرائيلى الرائعة فهو يدخل لبنان ليبشر بالحب والسلام.. فقد دخلت إسرائيل لبنان لتستأصل جذور الإرهاب هناك لأنهم يحاربون بعضهم بعضاً!!

لا داعى لسرد الرقة والبراءة وطيبة قلب الجندى الإسرائيلى خلال ذلك الفيلم حتى لا نصاب بالغيظ الذى أصاب رءوف خلال عرضه!

والحنق الذى أصابه بعد العرض بالترحيب والتصفيق، وكأن كل المآسي والمجازر التى قام بها الجيش الإسرائيلى فى لبنان لم يعرفها أحد من المشاهدين سوى رءوف. فهناك شيء آخر يراه العالم على الشاشة.

يقول رءوف: «وارتفعت أصوات التصفيق فى القاعة وكأنها نتيجة استفتاء على هذا الكذب الوقح، وشعرت بالمرارة تملأ حلقى.. وخرجت من القاعة وأنا لا أصدق ما رأيت وما سمعت، ولكن هذا هو دورهم الإعلامى».

• القضية ليست بهذه الهيافة

ومن الأفلام التى سردها رءوف فى هذا الفصل من الكتاب عن صناعة السينما فى إسرائيل فيلم «السفير» وهو عن سفير أمريكى فى إسرائيل يحاول جمع الشمل بين الشباب الإسرائيلى والشباب الفلسطينى لينهى هذا الصراع.. تدور أحداث الفيلم فى شكل بوليسى أحياناً.. إثارة أحياناً.. المهم ماذا يريد أن يقوله هذا الفيلم!

«إنه يقول إن السلام قد لا يفهمه بعض الشباب الإسرائيلى، ولكن عند الشباب الفلسطينى هو مسألة مستحيلة، ذلك لأن الفلسطينى تعود على القتل والإرهاب وسفك الدماء، والفلسطينى سيئ الظن بالجميع، لا يقبل التفاهم ولا يحترم الحوار، لأنه همجى بلا حضارة! ولم يكن غريباً أن جمهور الصحفيين والنقاد الذين شاهدوا معى هذا الفيلم فى عرضه الأول في مهرجان «كان» عام ١٩٨٤ قد علقوا بضحكات هستيرية وسخرية بالغة من مفهوم هذا

الفيلم للسلام بين إسرائيل والفلسطينيين، فالقضية ليست بهذه الهيافة وإسرائيل ليست بهذه البراءة! وقد كتب ناقد إنجليزى معلقاً: إن هذه النوعية من الأفلام تسىء إلى القضية التى زعم الفيلم أنه يؤيدها!

كتاب «سينما اليهود.. دموع وخناجر» يؤكد لنا أن هدف إسرائيل وصناع الأفلام المتحمسين لها فى معظم بلاد العالم هدف مستمر لتذكير العالم دائماً بمعاناة اليهود وأيضاً بتفوقهم.. ومع ذلك فهذا الهدف لن يستمر بدليل هؤلاء الشبان المخرجين الإسرائيليين الذين يظهرون الوجه الحقيقى لإسرائيل بأفلامهم المعارضة لسياستها الناقدة لها.. وكأنهم يقولون إن مسألة اضطهاد اليهود أو حتى تفوقهم استهلكت من زمن وأصبحت مبتذلة.

تحية لمعاناة الزميل والصديق رءوف توفيق. معاناته فى مشاهدة هذه الأفلام والكتابة عنها، فمن الصعب أن ألخص ما لخصه مسبقاً عن هذه الأفلام، وإذا كان ليس متاحاً لنا مشاهدتها فلنقرأ عنها لنفهم ماذا يفعلون فى العالم، ولتصيبنا بعض الدهشة عن المشاركين فيها من مخرجين عالميين وممثلات وممثلين عالميين نعجب بهم! والكتاب صدر عن الهيئة العامة للكتاب.. مكتبة الأسرة.. الأعمال الخاصة.

من عام ٢٠٠١

شحاذ فى القدس

قرأت روايات لكتاب يهود فى فترة الستينيات، قبل وبعد حرب ٦٧، لقد كانوا يكتبون خلال عناصر أساسية فى رواياتهم، أهمها إثارة شفقة الشعوب وتأنيب الضمير العالمى لأن العالم اضطدهم ومجتمعاته رفضتهم، وعنصر آخر في رواياتهم وهو تقديس الأرض، وقد ظهر هذان العنصران فى روايات «يائيل ديان» ابنة «موشى ديان» المعروف فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى.

ففى الستينيات كتبت يائيل عدة روايات قرأت منهما روايتين «طوبى للخائفين» و«تراب» ففى الرواية الأولى تؤكد معنى تقديس الأرض على لسان أحد أبطالها عندما وجد ابنه يذهب إلى المعبد نهره ووضع فى يده حفنة من تراب الأرض وقال له «هذا هو ربك الوحيد الذى يجب أن تعبده».

وقد كتبت تلك الرواية عن الجيل الجديد فى إسرائيل والصراع القائم على طريقة تربيته. هل ينشأ كجيل محارب على طريقة الإرهابيين الذين حاربوا فى فلسطين، أم ينشأ على الطريقة التقليدية التى تستمد قيمها من الديانة اليهودية؟! وفى روايتها الثانية «تراب» تحدثت أن قطعة أرض فى الصحراء بدأوا فى إنشائها مدينة، وصورت يائيل اضطهاد اليهود على لسان أحد المهاجرين من أوروبا إلى تلك الأرض، وكيف شاهد وهو طفل والديه يموتان بالتعذيب، وكيف اختاروه ليتعذب بالحياة وتطارده أشباحهما إلى أن تدفعه إلى

أرض فلسطين. وتقول الكاتبة على لسانه: «إن الله لم يعد حلماً بل أصبح واقعاً، فالله الآن بالنسبة لليهود هو إسرائيل التى كانت حلماً دينياً فأصبحت واقعاً تصنعه الأيدى والعقول»!

وبالرغم من أن يائيل ديان فى ذلك الوقت كانت تعيش معظم الوقت فى اليونان وربما إلى الآن تعيش فى أوروبا إلا أنها جعلت من روايتها «تراب» أداة للدعاية للهجرة إلى إسرائيل لكل يهود العالم.

كانت روايات اليهود الكتاب تثير شفقة العالم ليقف بجانبهم ويناصرهم فى امتلاك أرض، أليس لهم الحق فى أرض يعيشون عليها وتكون وطناً لهم حتى إن كانت هذه الأرض مغتصبة.

• **شحاذ فى القدس**

ربما كانت رواية «شحّاذ فى القدس» للكاتب اليهودى «إيلى ويزل» نموذج للرواية اليهودية فى تلك الفترة، فقد كتبها بعد حرب ٦٧ وتحدث فيها عن تلك الحرب وعن الشحاذين اليهود فى أوروبا وأيضاً فى القدس ويعنى بهم اليهود المهاجرين الذين ليست لهم أرض، وعن ذكريات طفولته التعسة فى أوروبا والحلم بالرحيل إلى أرض فلسطين.. أرض الميعاد، لذلك فهو يهرع للتطوع فى الجيش الإسرائيلى عندما سمع عن التعبئة العامة للجيش قبل حرب ٦٧.

فى أحد المعسكرات الإسرائيلية يتوجه بطل الرواية أو الشحاذ إلى قائد كان قد تعرف عليه فى أوروبا وقدم له نفسه متطوعاً ولأن الضابط كان يعرف أنه كاتب وليس مقاتلاً فسأله لماذا ترك وطنه الآمن فى أوروبا فقال له إنها رغبته فى الموت معه!! وقدمه القائد لجنود كتيبته على أنه ولد يهودى طيب. تشكك فيه الجنود عندما

قال لهم بصراحة إنه ليس مواطناً إسرائيلياً . . إنه يهودى ويريد أن يشارك . ضحك منه الجنود وسخروا منه، وفى تلك اللحظة ظهر من بينهم واحد رحب به وكان له تأثير قوى على زملائه وأصبح صديقاً له، يقول إنه وقت حرب ٦٧ لم يستطع أن يتخلص من الخوف لأن الشحاذين اليهود يجدون سعادة فى تمجيد فضائل الخوف باللعنات!

«عندما جاءت الأخبار مشجعة بانتصارات سيناء ركبت مع الجنود للتقدم إلى المدينة القديمة «القدس» الدم الذى يجعلنا نعيش، الضوء الذى يظهر فى الظلام . اسم . سر . وعد . تملكنى حبها قبل أن آراها ، إننا على موعد مع التاريخ، ووجدت نفسى أفعل كما يفعل الجنود ، أجرى . أزحف . أختبئ . أعطانى أحد الجنود بندقية فى الظلام ارتعبت من ملمسها وتركتها خائفاً .

جريت إلى سيارة، تركت السيارة، وقابلت صديقى بعد أن ترك المعركة، كان غاضباً، ثائراً، جلست بجواره صامتاً، قال بصوت غريب . . نعم أنا قتلت . . بكى . ثم ضحك . ثم بكى وضحك ولم أره بعد ذلك ، أحياناً لا أدرى من كان الشحاذ؟! أحياناً أقول أنه أنا وأحياناً أقول إنه كان كاتربيل صديقى . . » .

لقد دخل بطل الرواية القدس بالرغم من أنه لم يحارب، وحاول أن يبحث عن صديقه المحارب وكانت الإجابة التى تلقاها أنه ليس له أثر فقال إنه أثره . . وتعرف على زوجة صديقه هذا، تسول منها الحب، شحاذ حتى فى الحب، عذبته إلى أن بادلته الحب لأنه يذكرها بزوجها وتريد أن تمتلكه وقررت الزواج منه ولينسى صديقه «اترك الماضى فالموتى ليس لهم الحق فى القدس» .

ولم يحضر زفافهما إلا عشرة أفراد من اصدقائه الشحاذين!

يقول الكاتب: «انتهت الحرب أنا مازلت أعيش مستعداً للحب والسلام!! ومع ذلك فالحرب تركت آثارها على كل فرد. بالنسبة لى شعرت أن شخصاً مات بداخلى ربما هو صديقى فمهما كان النصر فهو لا يمنع العذاب من الوجود»!

أراد الكاتب «إيلى ويزل» أن يقول للعالم إنه حتى وإن كان قد دخل القدس وأقام فيها فهو شحاذ. فكلمة محتل فى القدس قد تغضب العالم الذى أصبح يعارض الاحتلال!

إن الكاتب عندما يكتب روايته حتى إن كانت من الواقع فهو لا يكتب الواقع تماماً. يضيف أو يحذف منه، ويصور بخياله ما يريد أن يوصله إلى القارىء الذى لم يشاهد الحقيقة أو الواقع، والآن، وبعد أن امتلأت سماء الكون بالأقمار الصناعية والبث التليفزيونى المباشر الذى جعل العالم كله يشاهد الواقع تماماً بدون خيال كاتب سواء بالصدق أو بالكذب.. هل مازال العالم يتعاطف مع هؤلاء الغلابة.. المضطهدين فى الأرض.. الشحاذين فى العالم؟!

هل مازال يتعاطف مع الرصاص والقنابل ضد الحجارة؟!.. يتعاطف مع باطل ضد حق؟!

من عام ٢٠٠٠

احتضان الهلال للصليب

«المسلمون والأقباط.. فى إطار الجماعة الوطنية» اسم كتاب كبير فى الحجم وفى المعلومات، مرجع كبير، دراسة مهمة قام بها المستشار طارق البشرى. كتب في المقدمة: «شغلنى موضوع هذه الدراسة فى أعقاب عدوان ١٩٦٧، وبدا مع الوقت أن هذه الهزيمة مما قد يتصور سعه أن تترك ظلالها على قوة التماسك فى المجتمع المصرى، وأن تفتت صلابته، الهزيمة فى ذاتها لا تشكل الخطر الأكبر رغم كل ما تفضى إليه من خسائر وتضحيات.. نحن بذواتنا موضوع الصراع وأرضه وميدانه. وامتلاك الذات هو حصن الأمان وهو العدة فى أية مواجهة. هو الانتماء باليقين للجماعة، وإدراك تميزها عن الطرف الآخر لذلك يكون الحذر زقوى ما يكون علي قوة تماسك الجماعة فى الملمات.. والطامع قوى الإدراك فى أن ضمانه الأساسى لا يأتى من عدته وأدواته ولكن يأتيه من تفتيت عرى التماسك فى الجماعة وإفساد قوامها.. أى من تصفية الانتماء.

• **القرن التاسع عشر وبداية الاندماج بين العناصر المصرية**

وعن موضوع الدراسة التى أخذت سنوات من الباحث طارق البشرى كتب: «إن موضوع الدراسة لا ينبغى أن يكون متعلقاً بموقف الأقباط من الحركة الوطنية، أو الحركة السياسية عامة، أو موقف أى من هذه الحركات من القبط لأن هذا الوضع للمسألة يعتبر عندى وضعاً مغلوطاً، إن الوضع السليم فى ظنى يتعلق بدراسة مسألة

المسلمين والأقباط فى إطار الوعاء الحاكم للمسألة وهو الجماعة السياسية دينية هى أم قومية وتتبع التطور التاريخى لهذه الجامعة.

من هذه الفكر يتتبع المؤرخ طارق البشرى نمو المفهوم القومى لهذه الجامعة السياسية منذ القرن التاسع عشر. ويعتبر أن تاريخ مصر الحديث مع نشأة دولة محمد على فى عام ١٨٠٥ ويجد أن التاريخ المصرى يكشف أن ثمة تلازماً تاريخياً بين بداية تكوين الجامعة الوطنية المصرية فى العصر الحديث وبين بناء الدولة الحديثة فى عهد محمد على، والدول المصرية هي المؤسسة القومية التى قام على أكتافها بناء الجامعة السياسية المصرية. . تحدث الكاتب عن عصر محمد على وعملية بناء مصر الحديثة دولة ومجتمعاً وبناء الجيش المنظم الحديث وإذا كان قد بدأ فى تجنيد المصريين فى الجيش معفياً فيه الأقباط، فقد كان الجديد فى مسلكه أنه جند من المصريين، وكانت بداية التمصير هذه فاتحة لتمامه. إذ تصعد المصريون أولاد العرب من رتب الجيش، ثم تصعدوا أكثر فى عهد محمد سعيد فرقى منهم إلى رتب القيادات الوسيطة، وكان من هؤلاء أحمد عرابى زعيم ثورة ١٨٨٢ فيما بعد. . وفى هذا السياق أزيلت آخر عقبات الاندماج بين العناصر المصرية بالقرار الذى أصدره الوالى. . إنه يجب على القبط أن يحملوا السلاح إلى جانب المسلمين، فتكون عليهم ذات الواجبات ليتمتعوا بذات الحقوق، وألغيت آخر علامات التفرقة الدينية بإلغاء الجزية المفروضة على الذميين عام ١٨٨٥.

وعندما أنشىء أول مجلس نيابى مصرى فى عهد إسماعيل فى عام ١٨٦ نص القانون:

«... على أن كل شخص بلغ من عمره الخامسة والعشرين يمكن ترشيحه على شرط أن يكون أميناً ومخلصاً وأن تتأكد الحكومة أنه ولد فى البلاد». فشمل القانون المصريين عموماً بغير تفريق بسبب الدين فى حق الترشيح بعضوية المجلس.

• إخوان الوطنية

يذكر الباحث طارق البشرى تاريخ الكنيسة القبطية فى مصر، وكيف عانت من اضطهاد على أيدى المسيحيين الملكانيين فى القرن الثامن عشر، وكيف قاومت السيطرة الأجنبية عليها بمواجهة الإرساليات التبشيرية فى القرن التاسع عشر، فقد ارتبط نشاط هذه الإرساليات فى آسيا وإفريقيا عامة بسعى الدول الأوروبية والغربية إلى غزو هذه البلاد اقتصادياً وسياسياً، وأن تخلق فيها أقليات ترتبط بها، تحدث عن حركة الامتزاج بين المسلمين والأقباط فى مصر فى مجالات التعليم والتجارة والعمل:. «كان الإسلام من ناحية ومسيحية القبط من ناحية أخرى والامتزاج الحضارى بين المسلمين والأقباط فى مصر. كان كل ذلك مما كون المناخ التاريخى والحضارى الاجتماعى والثقافى والنفسى لتبلور المفهوم القومى للجماعة السياسية المصرية».

كان عبد الله النديم يؤكد فى كتاباته على معنى الوحدة الوطنية ويشيد بتمسك المسلم والقبطى بحب الوطن، وقد كتب بعد فشل ثورة عرابى واحتلال الإنجليز مصر: «المسلمون والأقباط هم أبناء مصر الذين ينسبون إليها وتنسب إليهم.. قلبتهم الأيام على جمر التقلبات الدولية وقامت الدنيا وقعدت.. وهم هم إخوان الوطنية».

• القرن العشرين ومحاولة الشقاق

مع بدايات القرن العشرين، حدث الشقاق بين المسلمين والأقباط في مصر، فقد حاول الاحتلال البريطاني عمل هذه التفرقة بينهم، وظهر ذلك الشقاق من تبادل الكتابات في الجرائد المصرية. وقد قام العاقلون بنقد ذلك الشقاق من الأقباط والمسلمين، كان الطابع العام في ذلك النقد هو طابع العتاب والمجاملة، ولم يعرف من أحد طعن في الدين ذاته أو تعرض له بما يمس التوقير اللازم له، وكان حذر العقلاء من أن الخلاف لن يفيد إلا المستعمر.. وعرض الباحث بالتفصيل ما دار في المؤتمر القبطي الذى عقد في عام ١٩١١ لبحث مطالب الأقباط، وعن المؤتمر المصرى والإسلامي، وذكر تعليق الدكتور محمد حسين عن الشقاق الطائفي والمؤتمرين.. «لم تكن هذه المحنة شراً خالصاً.. فقد وضعت هذه الخصومة السافرة حداً لسوء الظن المتبادل بين الفريقين، وكانت تنفسياً شفا النفوس، وفرصة لتصفية ما بين الأخوين من خصومة وعلاجه بطريقة صحيحة.. نستطيع أن نقول إن هذا الشر المستطير كان نقطة البداية في خير عميم، وإذا كان من الحق أن هذه الخصومة كانت قمة العنف في النزاع الذى ينذر بتصدع الجامعة المصرية فمن الحق أنها كانت في نفس الوقت الميلاد الحقيقى لفكرة الوطنية المصرية».

• ثورة ١٩١٩ والامتزاج بين المصريين الأقباط والمسلمين

يحدثنا المؤرخ طارق البشرى أنه بعد ثورة ١٩١٩ اضطر الإنجليز إلى الاعتراف باستقلال مصر وحرصوا على أن يعلقوا في هذا الاعتراف التحفظات الأربعة.. ومنها حماية الأقليات، وهو أهم مبرر

يصلح عملياً للتدخل فى أخص خصوصيات السياسة المصرية الداخلية، ولوصم مصر أمام الجامعة الدولية بالتهمتين التقليديتين وهما التعصب الدينى وكراهية الأجانب.

وقد وقفت الوحدة الوطنية المصرية ضد الاعتراف بأى تحفظ دولى فى شأن الأقليات المصرية أوالوجود الطائفى فيها.. لقد كانت ثورة ١٩١٩ ذات أثر حاسم فى امتزاج المصريين، كما كان لقيادة هذه الثورة ممثلة فى الوفد المصرى دورها التاريخى الكبير فى مزج المصريين جميعاً فى إطار الوحدة الوطنية، وقام الوفد بهذا الدور بفضل تشكيله الوطنى العام من المسلمين والأقباط وتشكيل قياداته منهما، كما كان للقبط الذين ارتبطت جماهيرهم العريضة بالحركة الوطنية وبالوفد أثرهم الحاسم فى إفساد ذرائع التفرقة الطائفية فى مصر.

• تاريخ طويل فى مرجع عظيم

من خلاله يأخذنا الباحث عبر التاريخ من عهد محمد على إلى ثورة عرابى.. إلى القرن العشرين وثورة ١٩١٩، إلى دستور ١٩٢٣ والمجالس النيابية، إلى الثلاثينيات والحركات الشعبية فيها، ومعاهدة ١٩٣٦ ثم إلى الأربعينيات وأهم ما حدث فيها خصوصاً حرب فلسطين وكيف أصبحت المسألة الفلسطينية هى مضمون الحركة الوطنية المصرية، ثم إلى الخمسينيات وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وقد كتب الباحث طارق البشرى أن السنوات التالية للثورة تستدعى دراسة جديدة - وعد أن يقوم بها - لكن بالنسبة للتطور العام للموضوع الذى قام بدراسته فى الكتاب فقد ركز على عدة

ملاحظات عامة فى هذا الأمر . . عندما ألغت الثورة النظام الملكى فقد قضت على مؤسسة سياسية كانت بتكوينها الفكرى ومصالحها وسياستها تعوق التوحد القومى الأمثل لجماهير الشعب المصرى بعناصره الدينية . كما أمكن للثورة إجلاء الاحتلال البريطانى عن مصر عام ١٩٥٦ ، وأزيلت بذلك واحدة من القوى السياسية التى كانت تعمل على التفرقة بين الأقباط والمسلمين . . ومع ذلك فإن موقف الثورة حسب كتاب جمال عبد الناصر . . «فلسفة الثورة» انحسم لصالح القومية العربية ، وإذا كان نظام الثورة دفع التطور التاريخى فى مصر إلى ما به يتكامل الاندماج القومى بين العناصر الدينية فإنه لم يتخذ من السياسات العملية ما به يتحقق هذا الاندماج . . ومن الأمثلة التى أوردها الباحث فى هذا السياق عدم انتخاب أعضاء أقباط فى مجلس الأمة ، وجرى ذلك لعدة انتخابات ، وبدل أن يعالج هذا الأمر بالجهد السياسى الشعبى على طريقة حزب الوفد ، عُولج بإقرار مبدأ دستورى جديد وهو منح رئيس الجمهورية سلطة تعيين عشرة أعضاء فى المجلس النيابى وروعى فيما بعد أن يكون المعينون أقباطاً غالبهم أو كلهم . . ومع الانعطافة السياسية الكبيرة التى جرت فى السبعينيات جرت محاولات تصفية الوجود السياسى والفكرى لليسار المصرى بلجوء الدولة إلى استخدام الدين كسلاح لوصم اليسار بكل اتجاهاته بالإلحاد . وقد تأثر الأقباط من إثارة النزعة الدينية كجامع سياسى يستبدعهم ، بما قد يؤثر مستقبلاً فى حقوق المواطنين لغير المسلمين وبما يصوغ الدولة أجهزة وتشريعات على وفق هذا الوضع ! وتحدث الباحث عن بعض الحوادث

التى أثيرت بين المسلمين والأقباط فى السبعينيات فى مصر وما أثاره أقباط المهجر خصوصاً فى أمريكا عن اضطهاد الأقباط فى مصر، وكيف تصدى تلك الهجمة كتاب مصريون من الأقباط والمسلمين.

• احتضان الهلال للصليب

فى ختام هذا الكتاب المهم يكتب الكاتب الباحث والمؤرخ المستشار طارق البشرى: «أقول لا يضمن أحد لأحد فى هذا البلد شيئاً إلا حقه فى المساواة السياسية والاجتماعية وإلا حقه فى المشاركة والمودة.. أما حجم الإشباع الحسى للحاجيات أو الترفيات ونوع نماذج العيش وا ُـياة ونظم الحكم نفسها فلا ضمان والطريق شاق وطويل، وكل ما وراء المساواة والمشاركة لا يملك أحد أن يضمنه لأخيه ولا لنفسه وليس من عاصم إلا الانتماء وإنكار الذات. كيف يتأتى ذلك بغير إسلامية المسلم وقبطية القبطى معاً يتوحدان مندمجين فى وطن واحد على أرض واحدة. إن المساواة تعنى الاتحاد وهى تتضمن المشاركة، وهما من أوضاع المواطنة، وتقرير المساواة حل دستورى، وهى فى الوقت نفسه تحتاج إلى نشاط فكرى على أسس وطنية وقومية جامعة فى إطار الأهداف العليا للمجتمع فى تصديه لأعدائه وفى تحقيقه لنهضته، فضلاً عن إحياء العلاقات التاريخية الصحية بين ذوى الأديان فى إطار المواطنة والتاريخ القبطى يمثل حقبة من التاريخ المصرى الطويل القديم، وقد سبق العصر القبطى العصر الإسلامى فلا يوجد ما يتنافى مع الإسلام فى تقرير بطولات هذا العصر، وما كان فيه من رجال عظام ومن حركات

شعبية مجيدة هى مصدر فخر واعتزاز لمصر والمصريين.. لم تبن وحدة مصر فى ١٩١٩ بنفى الهلال أو الصليب بل كان رمزها احتضان الهلال للصليب كرمز لاحتضان الغالبية الدينية للأقلية، ونحن لا نبحث عن صيغة فناء، ولكن عن صيغة وجود، وجود حى قوى، وحسبنا على هذه البسيطة المساواة والمشاركة فى الوطن، والتواد والتحاب فى العيش والتزاور فى الدور والتجاور فى القبور».

• مصادرة.. ثم إفراج

لقد صدر هذا الكتاب المرجع منذ عشرين عاماً فى أكثر من سبعمائة صفحة، ولاقى اعتراضاً ومصادرة خوفاً من إحتمال إشعاله لفتنة طائفية كانت ظروف البلد وقتها لا تحتملها!! إلى أن قرأه بعض المتخصصين، الدكتور أحمد شلبى أستاذ التاريخ الإسلامى، والدكتور مصطفى حجازى المحقق فى كتب التراث فى المجمع اللغوى، والأستاذ توفيق حنا الكاتب والناقد، والأستاذ جورج بباوى، وكان أستاذاً فى علم اللاهوت فى الكلية الإكليريكية.. وهو العلم الذى يبحث عن العقائد المتعلقة بالله، وقد أجمعوا على أن هذا الكتاب المهم يدعو إلى الوحدة الوطنية وليس للتفرقة.. وجاءت الموافقة للإفراج عن الكتاب بعد عدة أشهر.. ثم صدرت له طبعة ثانية من دار الشروق عام ١٩٨٨ والطبعة الثالثة ستصدرها الدار قريباً.

من عام ٢٠٠٢

أيقونة فلتس.. أيقونة الفن

• حكاية فلتس

عندما قرأتها فهمت الحزن فى عيون الأطفال الذين يرسمهم الفنان «جورج البهجورى» كنت أقف حائرة أمام لوحاته الكبيرة والصغيرة المليئة بالأطفال، أتأمل عيونهم الحزينة، البريئة، المتسائلة، الراغبة. الباحثة عن حضن أمان، ولا تجده.. ولد «فلتس» فى صعيد مصر، صارخاً قابضاً يده اليمنى، لا يفك أصابعه، وعندما يضغطون عليها ليفكها يصرخ، كأنه يشعر بسر معين فى كف يده ويخبىء هذا السر، لا يكف عن الصراخ إلا فى حضن أمه رحمة «ملتصق بجسم أمى لا أغادره فى ذلك المكان الأمين الدافىء ما بين الكتفين والثديين.. وذراعاها تحيطانى من الوسط وأسفل القدمين. مع مرور الوقت تعلمت حركة جديدة.. يدى تخبط علي خدها بينما وجهى لا يغادر وجهها». من الصعب، أن يلتصق طفل هكذا بأمه ويفقدها وهو فى عمر الثالثة. !

لقد بدأ وعى الطفل فلتس بالحياة برحلة الشمال.. رحلة طويلة فى قطار الصعيد من الأقصر ثم قطار وسط الدلتا إلى منوف، حيث انتقلت الأسرة من جنوب الوادى إلى شماله بحثاً عن الرزق، والده «عبد المسيح» أفندى مدرس اللغة الإنجليزية فى المدرسة الأمريكية بالأقصر، أعجب المدير الإنجليزى بطريقة تدريس اللغة فرشحه للعمل فى المدرسة الجديدة التابعة للإرسالية الإنجليزية فى منوف مع

عدة مميزات.. السكن وتعليم الأبناء والعلاج بالمجان، وإن كانت زيادة المرتب ضئيلة، وهكذا جاءه التعيين وصحب زوجته وأبناءه الثلاثة «جميل وحنا وفلتس». تتوقف الأسرة فى القاهرة عدة أيام قبل مواصلة رحلتها إلى الشمال، ونتعرف على عائلة الأب الذين يسكنون بيوتاً يمتلكونها فى منشية الصدر وحدائق القبة، وعائلة الأم الذين يسكنون حى شبرا. ولأن عبد المسيح أفندى هو الوحيد المتعلم فى عائلته فى ذلك الزمن. فقد قرر أن يعلم أولاده إلى أقصى مراحل التعليم، قرر أن يترك ابنه الأكبر جميل عند عمه فى القاهرة ليتم تعليم الابتدائى ويلتحق بالثانوى.. وواصلت بيقية الأسرة رحلتها إلى منوف.

تعيش الأسرة فى أمان وحب حيث تستقر فى بيتهم الجديد فى عزبة الأقباط حيث الكنيسة ومدرسة الإرسالية الإنجليزية، ليكون عبد المسيح أفندى مدرساً للغة الإنجليزية الجديدة على أبناء الفلاحين.. يقول لتلاميذه ضمن الدرس الأول.. «.. أولاد الباشوات هم اللى بيتعلموا اللغات فى المدارس الغالية بمصاريف.. أنا عاوزكم ولاد الفلاحين والموظفين البسطاء تتقنوا اللغة دى».

وتنجب الأم طفلة بعد ثلاثة ذكور، وكعادتهم كل أجازة صيف يقضونها فى القاهرة فى بيت العمة والعم وأهل الأم ليلتقوا بالابن الأكبر، كانت إجازتهم ذلك العام بعد ولادة الطفلة مأساة حفرت فى أعماق الطفل فلتس وهو في الثالثة من عمره، يفقد حضن الحب والأمان، تموت أمه أثناء عملية جراحية مفاجئة.. وتعود الأسرة الحزينة إلى منوف بدونها، الأب وولداه حيث تركوا الرضيعة مع الخالة لرعايتها والابن الأكبر ليتم تعليمه.

لم يفهم الطفل فلتس سر اختفاء أمه مباشرة كانت إحدى قريبات والده تذهب إليهم فى منوف عدة أيام تعد لهم طعاماً، ترعاهم فترة ثم تعود إلى القاهرة، وفى صلاة الأحد فى كنيسة الإرسالية، كان فلتس يتأمل صور العذراء والطفل، ويتأمل بطن يده اليمنى ليجد الصورة مطابقة فى خطوط اليد فيطبقها. يحتضنها.. يبكى.. يتلمس طريقه فى مدرسة منوف، ويعتقد الأب أن فرحة ولديه فى الإجازة الصيفية فى القاهرة، من بيت العائلة يتسلل الطفل فلتس إلى بيت العمة حيث الحديقة، يلتقط حبات البلح تحت النخلة وحبات الجوافة تحت الشجرة.

وتكون شجرة الجوافة فى بيت العمة علامة فى حياة فلتس.. كان يتسلقها، يأكل ثمارها، يراقب أسرة العمة وهم يجتمعون وقت الغذاء.. وفلتس فى السادسة من عمره يقرر الأب أن يتزوج، فى أول الأمر نجح عبد المسيح أفندى فى تركيب المعادلة الصعبة بين أولاده من زوجته الراحلة والزوجة الجديدة، لكن يذهب أمان الزوجة عندما تبدأ فى إنجاب البنات. وتبدأ الحرب بينها وبين الولدين خصوصاً الولد فلتس. كما تبدأ الحرب العالمية الثانية، وتأتى عائلة الزوجة لتعيش فى الريف الآمن، ويجد فلتس الأمان مرة أخرى مع أخت زوجة أبيه التى سرعان ما تتزوج من فلاح فى منوف ويجد نفسه وحيداً. وتغلق الإرسالية الإنجليزية أبوابها بعد الحرب ويعود عبد المسيح أفندى بأسرته إلى القاهرة إلى بيت العائلة فى منشية الصدر، حيث بنى حجرتين فوق السطح ويعمل مدرساً فى مدرسة بعيدة عن سكنه.

وتضيق الحياة فى وجهه.. يقول فلتس: «.. وتحول وجه الزوجة الجميلة إلى وجه آخر ملىء بالغيرة والغضب الدائم والمشاجرات بينها وبين الولدين، حنا وفلتس، لقد أنجبت أطفالا كثيرين لأن فى كل مرة تلد بنتاً إلى أن بلغن خمس بنات وأخيراً جاء الولد.. فأصبح أولاد وبنات عبد المسيح أفندى عشرة».

فى القاهرة يحكى فلتس عن ابناء عمومته والتصاقه باثنين منهم، ومن تأمله يبدأ فى رسم خطوط يعبر عما فى نفسه، يشجعه قريبه ويسأله أن يرسم صحبته الذين يسهرون معه، ويرسم ملامح وجوههم لكن بشىء من التصرف فيضحكون على صورهم، يجد فلتس متنفساً عن عذابه النفسى فى بيت والده بصحبة أقاربه، يخفى الحزن بكركرة الشيشة والضحكات، ويتعرف على أصدقاء فى المدرسة الثانوية ويريد أن يلتحق مثلهم بكلية الطب لكنه يرسب فى الشهادة التوجيهية.

وينصحه أخوه الأكبر جميل الذى يعيش طوال السنين مع العم أو العمة والذى ينهى دراسته فى الجامعة الأمريكية بتفوق ويستعد للسفر فى بعثة إلى أمريكا، ينصحه بعد أن يشاهد خطوط رسوماته المشخبطة أن يُعرفه على أستاذ فى الرسم، كان زميلاً له فى المدرسة الثانوية ليتعلم أصول الرسم وأن يترك حلمه بالطب.. ويتعرف فلتس على الأستاذ كمال أمين الذى يدربه كيف يجتاز اختبار المواهب حتى يلتحق بكلية الفنون الجميلة.

في ذلك الوقت كان يمكن الالتحاق بكلية الفنون الجميلة بشهادة الثقافة الثانوية، وكانت معترفاً بها مثل شهادة التوجيهية في إتمام الدراسة الثانوية،والتحق فلتس بكلية الفنون بعد نجاحه في الاختبار، وكان في عمر السادسة عشرة، ويحكي عن رحلته اليومية إلى الكلية، وحي الزمالك الراقي في ذلك الزمن في أول الخمسينيات!

في ذلك الوقت كان فلتس وأخوه حنا يعيشان وحدهما في حجرة صغيرة، بعد أن طردهما والدهما أثر مشاجرة بينهما وزوجته، ليعتمدا على أنفسهما، ليرحماه من مصاريفهما ليربي إخواتهما الصغار.

عمل حنا في شركة تأمين وهو يدرس في كلية الحقوق، وعمل فلتس في بيع الجرائد في محل في فندق كبير، وعاشا بالكاد، وقد أرسل فلتس خطاباً لأخيه الأكبر في أمريكا يشكره على أنه قاده إلى الطريق الصحيح لدراسة الفن: «... المهم أني رأيت من جديد الأيقونة في كف يدى التي تعني الكثير.. أيقونة الفن.. تشعرني بأني موهوب فشكراً لظهورها من جديد.. وشكراً لك». وطوال إجازة الصيف يذهب فلتس إلى بيت العمة يرسم أقاربه بخطوطه الجديدة ويتسلق شجرة الجوافة العتيقة، وقد سمع بقيام ثورة يولية ١٩٥٢، وهو جالس فوقها، أجمل سنوات حياته في كلية الفنون الجميلة وأعز صداقاته تكونت هناك، ومع كل زملائه وأساتذته صور من خطوطه الملخصة لوجوههم، في شكل كاريكاتوري، يعجب بها الفنان عبد الغني أبو العينين الذي التحق بعد تخرجه من كلية الفنون

بالعمل فى مسئولية مجلة روزاليوسف السكرتير الفنى والتحريرى. ويستدعى فلتس للعمل فى المجلة، وتظهر خطوط جديدة فى المجلة العريقة، يجد فلتس مجالاً أفضل للكسب بدلاً من بيع الجرائد فى الفندق ليكمل دراسته، وتأتى فرصته الذهبية عندما يترك الرسام عبد السميع روزاليوسف فجأة بعد مشاجرة مع إحسان عبد القدوس رئيس التحرير بدون أن يترك رسماً للغلاف، ويطلب الفنان أبو العينين من فلتس أن يرسم الغلاف، وكان صورة للرئيس الأمريكى أيزنهاور بالخطوط الجديدة الكاريكاتورية للفنان الجديد الصاعد فلتس، أو «جورج البهجورى».

• **تدفق الذكريات**

مثل مياه غزيرة لا يعرف التحكم فيها يسرد جورج البهجورى قصص رسوماته، يحكى عن كبار الكتاب والفنانين الذين قابلهم من خلال المجلة، يحكى عن زملائه وأصدقائه الفنانين والمحررين، يتألق فى رسم الشخصيات بطريقته الكاريكاتورية، يغضب منه البعض ويهلل له البعض إعجاباً، يتخرج من الكلية فى منتصف الخمسينيات ويتحدث عن بداية مجلة صباح الخير وكيف يتلقفه الفنان حسن فؤاد الذى أحدث إنقلاباً فى الإخراج الصحفى بالأوراق الملونة والزوايا الكاريكاتورية الموزعة فى المجلة برشاقة.. ومن ذكرياته المتدفقة أنه تصالح مع والده وزوجته، وأن أخاه حنا وأخته الشقيقة تزوجا فى مصر وسافرا للعمل والمعيشة فى أمريكا مع أخيهم الأكبر.. وتظهر فى حياته قصة حب جميلة «نيتوكريس» الفنانة أيضاً. «.. وكأنها

تضفى نور الشمس الساطع من بشرتها البرونزية على مشاعره ولوحاته التى تركها بيضاء منذ أنهمك فى صراع الصحافة.. يغلق على نفسه فى مرسمه الملحق بشقته الصغيرة التى اختاراها عشا لحبهما، يبدع لوحات ملونة جديدة يعود فيها إلى طفولته فى الأقصر ومنوف.. وتصبح الحارة والأطفال موضوع لوحاته الزيتية.

لأنه لم يعرف الاستقرار العائلى منذ طفولته ربما لذلك ضجر من رتابة الحياة الزوجية، وأيضاً من رتابة الحياة الصحفية فقرر السفر إلى باريس. فى الطائرة ينام ويحلم أنه يطير فوق الأشجار، يطير فوق الكرة الأرضية ويكركر ويضحك وبجواره طيور النورس المهاجرة إلى الشمال.

الآن فلتس.. أو جورج البهجورى مستقر فى القاهرة مع زوجته الصبورة.. وخطوطه الكاريكاتورية المعبرة ولوحاته الفنية.. وبدأ يكتب عن سنوات باريس وحياته الفنية هناك ليضم الكتاب الثالث إلى كتابيه السابقين لسيرة حياته.. سيرة روائية.

من عام ٢٠٠١

ألف ليلة وليلة: الخيال والحقيقة

أستمتع بالغطس فى حواديت ألف ليلة وليلة، هذه التى سمعتها وقرأتها منذ صغرى، استمتع بها الآن خصوصاً إذا كان كاتب حواديتها المأخوذة عن التراث القديم الخيالى كاتباً مثل عبد السلام أمين بأشعاره الشجية وكلماته المعبرة وعباراته الرشيقة، وأقدر الممثلين الكبار الذين يمثلونها، بجانب ألف ليلة وليلة الخيالية التى استمتع بها فى رمضان هذا العام وجدت نفسى أغطس يضاً فى ألف ليلة وليلة حقيقية، واقعية فى حكايات الملكة نازلى التى جمعها من مذكرات معاصريها الكاتب والباحث رشاد كامل فى كتاب «الملكة نازلى.. غرام وانتقام» كانت العائلة الملكية من علامات وذكريات طفولتنا وصبانا فى الأربعينيات، تلك العلامات والذكريات كانت قريبة منى، كان جدى لأبى صديقاً لوالد الملكة نازلى، عبد الرحيم صبرى، وتعرف أبى من خلال تلك الصداقة على شقيقيها.. حسين وشريف وتولدت صداقة بينهم، وكان يصغرهما فى العمر وظلت صداقتهم إلى أن رحلا.. حسين، وشريف فيما بعد. ولأن أبى كان عاشقا للتصوير الفوتوغرافى فكان يصور صديقيه وعائلتهما فى حدائق قصورهما وحجراتها الفاخرة، وحتى لا يطلع أحد على تلك الخصوصيات لناس مهمين تعلم أبى تحميض الأفلام وطبعها فى البيت واشترى المعدات لذلك، ولأن الملكة نازلى قد قررت أن تستقل بحياتها بعيداً عن ابنها الملك فاروق وزوجته الملكة فريدة فى قصر

وحدها مع بناتها لأن ابنها كان يريد أن يحبس حريتها مثلما كان والده الملك فؤاد، ولأنها قد انطلقت بعد رحيله لتعيش حياة اللهو والبذخ. ولأن صور حفلاتها كانت تتسرب إلى المجلات من مصورين محترفين فقد اقترح عليها أخوها شريف أن تستعين بصديقهم المخلص عاشق التصوير.. صادق فهمي، فهو لم ولن يبيع حياتهم الخاصة للصحف، وعلاوة على ذلك فهو يحمض ويطبع الأفلام فى بيته وليس فى معمل تصوير عام، وهكذا دخل أبى حياة الملكة نازلى من خلال عدسات آلات تصويره، ووثقت به فكانت تستدعيه ليصور حفلاتها الصباحية والعصرية والمسائية فى حدائق قصرها وحجراته الفاخرة.

شاهدت تلك الصور فى طفولتى.. شاهدت وجوهاً من غظماء وعظيمات ذلك الزمان، لم أفهم من هم، لم أذكر من الوجوه سوى وجه الملكة نازلى وبناتها، وكان أبى يحذرنا من ذكر أى شىء لأى أحد عن تلك الصور، أو أنه يذهب لقصر الملكة الأم، ربما من كثرة تحذيرات أبى لنا اختفت تلك الذكرى من ذاكرتى، لكن الكمبيوتر البشرى الكائن فى المخ يحتفظ بكل صغيرة وكبيرة فى حياة الإنسان، يخرجها على شاشة الذاكرة وقت استدعائها من شىء خارجى، حادث يذكرنا بحادث قديم، نغمة موسيقية تذكرنا بوقت ما، منظر طبيعى، بيت، رواية، كتاب، وهكذا ظهرت تلك الذكريات من الطفولة وأنا أقرأ كتاب رشاد كامل عن حكاية الملكة نازلى التى هى مثل حكايات ألف ليلة وليلة.. ربما بدأت أسمع عن حكاياتها فى صباى بعد أن نشرت أخبار اليوم حكاياتها مع رياض

غالى وزواجه من الأميرة فتحية فى أواخر الأربعينيات، وربما بدأت أسمع عن بعض حكاياتها بعد ثورة يولية، وربما قرأت حكاياتها خلال مذكرات باحثين وكتاب من الذين عاصروها، لكننى لم أعرف الكثير عنها إلا من خلال ما جمعه رشاد فى كتابه.

جمع رشاد بين الحياة السياسية فى مصر والحياة الخاصة للملكة فى تسلسل من طفولة نازلى، لم تكن بعيدة عن الجو السياسى منذ طفولتها وكانت فى صباها وشبابها لا تترك بيت الزعيم سعد زغلول حتى أنها خطبت لابن أخيه، كانت واعية سياسياً، كما كانت واعية لحياة الأمير أحمد فؤاد الذى كان متزوجاً من الأميرة شويكار، وله منها ابنة وطلقها ليعيش أعزب عشرين عاماً بين اللهو والمغامرات النسائية ولعب القمار، وعندما اختاره الحكام الإنجليز ليكون سلطاناً على مصر قرر الزواج حتى لا تكون حياته الخاصة منفذاً لأعدائه، وقد وقع اختياره من بين بنات الأسر الراقية فى مصر على نازلى ابنة عبد الرحيم باشا صبرى، وكانت تصغره بحوالى ثلاثين عاماً، وبالرغم من أن نازلى كانت تعرف كل تلك السيئات إلا أنه سحرها بكلامه ومنظره وتزوجته لطموحها فى السلطنة، ثم المملكة بعد ذلك، وأصبحت ملكة بلا دور فى الحياة السياسية أو الاجتماعية ملكة على الورق سبعة عشر عاماً إلى أن توفى الملك فؤاد.

لم تدر أنها ستعيش مسجونة فى القصور بعيدة عن المجتمع الذى حلمت به، والسياسة التى تهواها، ولم يشفع لها إنجاب ولى للعهد ثم أربع بنات من بعده، كانت أوامر فؤاد الصارمة فى إبعاد الأطفال عن أمهم ليكونوا فى رعاية مربية ومعلمة إنجليزية صارمة، وقد كتبت

عنها كاتبة وصحفية أمريكية بعد مقابلتها بصعوبة: «قرأت في طفولتى قصة العصفور والقفص الذهبى، ولكنى لم أر عصفوراً حقاً داخل قفص من ذهب إلا حينما قابلت الملكة نازلى، ملكة مصر الجميلة، ولقد خرجت من عند الملكة وأنا أؤمن أن هذه الملكة الصريحة الطموح سيدة ذات روح متحررة ستنتهز أول فرصة سانحة لكى تحطم كل القيود، التى تضعها التقاليد حول عنقها وتهرب من السجن الشامخ الذى تعيش فيه».. وهذا ما حدث.

عندما توفى الملك فؤاد، وعاد فاروق إلى مصر من إنجلترا الذى كان يتربى فى مدارسها لينال تعليماً ملوكياً ظهر تسلط الملكة نازلى فى إبعاد كل العناصر التى ارتبطت بشخص الملك فؤاد فى القصر، والتى تعذبت بوجودهم وعذبوها خصوصاً المربية الإنجليزية، وبدأت تسيطر على ابنها فاروق سيطرة سياسية وعاطفية.

بدأ انطلاق الملكة نازلى فى الحياة السياسية والاجتماعية والعاطفية، وكانت قصة الحب المشهورة فى ذلك الوقت مع أحمد حسنين الذى كان يعمل مع الملك فؤاد طوال اثنين وعشرين عاماً، وقد اختاره ليكون رائداً لأبنه فاروق أثناء سفره إلى لندن، وظل معه حتى عاد بعد وفاة والده، كان حسنين يعرف الكثير عن سجن الملكة نازلى وعذابها ووحدتها ومغامرات زوجها النسائية، وكان يعرف تلهفها على الحياة المرحة الطليقة، وعندما عاد فاروق الذى سيصبح ملكاً كان فى ذهنه هدف واحد أن «الغاية تبرر الوسيلة» وكان مؤمناً أن الذى بسيطر على نازلى يستطيع أن يسيطر على الملك فاروق.. كان أحمد حسنين فى تلك الفترة رجلاً له مكانته الاجتماعية

المتميزة، فقد كان متزوجاً من ابنة الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد، وكانت رحلة العائلة الملكية إلى أوروبا فى الفترة التى سبقت تولى فاروق الحكم بداية لفضائح الملكة نازلى وعلاقة حبها بحسنين، الذى رافقهم تلك الرحلة، وعندما علمت زوجة حسنين بكل ما قيل عن علاقته بالملكة شتمتها علناً فى منشورات، وطلب منها زوجها الاعتذار للملكة وإنكار التهمة فرفضت.

ومن مذكرات الكاتب الكبير الذى كان مقرباً للقصر محمد التابعى: «إن حسنين لم يكن أمامه سوى أن يطلق زوجته وأم أولاده التى كان يحبها لكن حبه لمطامعه كان أكبر.. وكان حسنين يلبى نداء العقل عن القلب وكان عقله حليف مطامعه».

وكما انطلقت الملكة نازلى فى الحب انطلقت فى السيطرة على الملك فاروق وزوجته الملكة فريدة، ولم يكن فاروق يعترض فقد كان يحب أمه بل إنه قد أصدر قراراً باستمرار لقبها بالملكة بعد أن تزوج فصارت لمصر ملكتان. الأم.. والزوجة، لكن فاروق بدأ يستاء من سهرات الملكة نازلى فى الأماكن العامة وأقاويل الناس عنها، كما بدأ الصراع بين الملكتين، الزوجة والأم، وبدأ فاروق يظهر غضبه من أمه، وبالتالى كان غضبها منه، وكانت أحياناً عندما تغضب من ابنها تأخذ بناتها وتسافر.. مرة إلى الأقصر، ومرة سافرت بهن إلى القدس وقت الحرب العالمية الثانية، وقالت إنها ستترك مصر له، ووصل إلى علم الملك لهوها وبناتها مع الضباط الإنجليز، لم يكن سفرها بسبب غضبها من ابنها الملك فقط بل أرادت أن تبتعد عن حبيبها أحمد حسنين لتغيظه. ففى ذلك الوقت دخل فى قصة حب مع المطربة

أسمهان.. وكانت غيرة نازلي وبجاحة أسمهان قد جعلا حسنين في مآزق كثيرة، وقد بقيت الملكة وبناتها في القدس إلى أن سافر إليها النحاس باشا وزوجته ليقنعاها بضرورة عودتها إلى مصر لخطورة الحال في المنطقة، وكان تكليف النحاس من أحمد حسنين رئيس الديوان الملكي.

ظلت قصة غرام الملكة نازلي بأحمد حسنين سنين إلى أن تزوجها زواجاً عرفياً حسب أوامر الملك فاروق، واختلفت المذكرات في تاريخ زواجهما وإن كان من المعتقد أنه تم بعد عودتها من القدس، وقد قتل أحمد حسنين في حادث سيارة عام ١٩٤٦، ولما سمع الملك فاروق بالخبر أسرع إلي بيته حيث ألقى عليه نظرة أخيرة وفتح خزانته وأخذ عقد زواجه من أمه، وكان موت حسنين صدمة عظيمة للملكة نازلي، وعندما أنبها ابنها على حزنها نهرته قائلة: أن حسنين هو الذى جعله رجلاً.. ويأتي الخروج الأخير للملكة نازلي من مصر بعد موت الرجل الوحيد الذى أحبته.. من أوروبا إلى أمريكا مع ابنتيها الأميرتين فايقة وفتحية، وكانت حكاية رياض غالي الذى كان يعمل في القنصلية المصرية في مرسليا حيث نزلت الملكة في أول محطة لسفرها، كان خادماً للملكة ثم متحكما فيها، ثم كان إغراؤه لفتحية وحبها له وزواجها منه، وغضب الملك فاروق وحرم أمه من لقب ملكة. ثم سفر نازلي مع رياض وابنتيها إلى أمريكا.. والنهايات المأساوية التى حدثت لها بعد ذلك، فقد بدد رياض ثروتها في مشروعات خائبة.. حتى اشهرت إفلاسها، وتعرضت لشدائد فظيعة مع ابنتيها، فقد اصبح رياض غالي بعد خسائره سكيراً ويسيء معاملتهن حتى أنه

طردهن من قصرهن الذى كان مرهوناً، وعملت فتحية أعمالاً شاقة ليجدن مأوى.. وسكن فى بيت صغير في لوس أنجلوس، وكانت النهاية المأسوية عندما أطلق رياض الرصاص على فتحية فى ظروف غامضة وقتلها، وأراد أن يقتل نفسه لكنه لم يمت وقتها.. وماتت الأسطورة.. الملكة نازلى فى ذلك البيت الصغير فى عمر الرابعة والثمانين عام ١٩٧٨ فقيرة.. مهجورة.. وتركت لنا حكاية حياتها مثل حكاية ألف ليلة وليلة، لكنها ليست حكاية خيالية.

من عام ١٩٩٩

فأجاتنا المسلسلات الدرامية فى شهر رمضان المبارك هذا بعصر ألطرابيش، فالمسلسلات الرئيسية حرصت على دراما من أحداث تاريخية من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، ولتأكيد ذلك الزمن هو ظهور الطرابيش فوق رؤوس الممثلين، فى الليل والنهار، وعلى الشاطىء، حتى وإن كانت «حلقة» شعورهم حديثة! يكفى أن يرتدوا الطرابيش لكى نفهم أنه فى زمن مضى.

عندما ألغت حكومة الثورة ارتداء الطرابيش كزى رسمى فى مدارس الأولاد وعموماً للرجال كان أبى يحافظ على غطاء رأسه بالطربوش، وكان لنا قريب مهزار - بلغة ذلك العصر - وكان يقول أنه لم يعد يوجد فى مصر غير اثنين يستخدمان الطربوش «عمى صادق وبابور الجاز»، حيث كان وابور الجاز فى البيوت يطلقون على مكان الشعلة بالطربوش، وقبل إلغاء الطرابيش فى مصر ألغاها مصطفى كمال فى تركيا، وكان هناك غطاء رأسى ضرورى للرجال أكثر من مصر، وقد فرض على الأتراك أن يخلعوا الطربوش ويضعون على رؤوسهم القبعة.. تشبهاً بأوروبا، وشنق رجلاً وربما أكثر لأنه عصى أمره وظل يرتدى الطربوش.

ويحكى الأديب والدبلوماسى «يحى حقى» عن الطربوش أنه كان سبباً فى أزمة سياسية بين مصر وتركيا حين طُلب فى حفل رسمى كبير من وزير مصر المفوض أن يخلع طربوشه عن رأسه، وطبعاً ذلك

الطلب يعد إهانة للوزير فكيف يخلع هيبته من فوق رأسه؟! الحمد لله أن حكومة الثورة لم تأمر بوضع القبعة بدلاً من الطربوش ولم تحكم على أحد بالشنق بسبب ارتدائه!

ضمن هذه المسلسلات التاريخية التى يعرضها التليفزيون الآن بهذا الكم الهائل من الطرابيش ظهر طربوش عظيم لرجل عظيم فى تاريخنا الحديث وهو الزعيم الباشا سعد زغلول، أتذكر تمثاله المشهور بطربوشه الذى كان يضعه أبى على مكتبه الكبير، لم يكن أبى ينتمى لأى حزب فى ذلك الزمن، لكنه كان يحب ويعز سعد زغلول لمواقفه الوطنية العظيمة، أجد دائماً ذكر سعد زغلول الزعيم فى الروايات التاريخية الدرامية وحده، نادراً ما يذكرون رفيقة حياته السيدة العظيمة صفية، التى لم تنجب من سعد، وكانت أماً لكل المصريين، وقد وجدت ضالتى العظيمة فى كتاب: «الهانم والزعيم».

حكاية زواجهما ورحلة كفحهما يحكيها الكاتب «رشاد كامل» فى هذا الكتاب، اجتهد فى جمع مادته من ثلاثين مرجعاً وأكثر عن مشوار حياة سعد زغلول وأم المصريين خلال الحياة السياسية فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر حيث تم زواج سعد وصفية عام ١٨٩٦ وأوائل القرن العشرين.

«سعد وصفية كلاهما على موعد مع التاريخ، سعد وصفية لم يخطر ببال أحدهما أن يرتبط بالآخر ويمتزج به ويذوب فيه ويتحد معه، كانت كل الظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية منذ ذلك الارتباط. فقد كان سعد زغلول ابن عمدة ريفى، وكانت صفية ابنة لأشهر رئيس وزراء مصرى كان يعلن عن احترامه وإعجابه بالإنجليز،

لم يخطر ببال مصطفى فهمي باشا أن تتزوج ابنته من أكبر أعداء الإنجليز، ولم يخطر ببال سعد أن يتزوج من فتاة ذات أصول تركية ولدت في بيت يمتلىء بالخدم والحشم. وكان من الجنون والحماقة أن توافق أية أسرة مصرية على أن تصاهر أحد المحامين. فقد كان ذلك بمثابة فضيحة؛ لأنهم كانوا لا يحترمون مهنة المحاماة، وقد كان وقتها سعد زغلول قاضياً بمحكمة الاستئناف، وكان يكبر صفية بثماني عشرة سنة.. تثقفت صفية من خلال سعد واهتمت بالأحوال السياسية، وكانت أول من يناقشها في تلك الأمور، وكان لها رأى يعتز به خصوصاً عند ترشيحه لرئاسة الوزارة وأيضاً عند اعتزامه الاستقالة من الوزارة.

كان كفاح الزعيم سعد زغلول ضد الإنجليز واضحاً خصوصاً بعد إعلان الحماية على مصر من بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعد انتهاء الحرب عام ١٩١٨ اعتقد المصريون أن الحماية ستنتهى وسيحصلون على الاستقلال طبقاً لمبادىء الرئيس الأمريكي ويلسون الذى أعلن عن حق الشعوب في تقرير مصيرها ومن بينها الشعوب العربية الخاضعة لسيادة تركيا، لكن الإنجليز ماطلوا وكانت معارك سعد زغلول وكفاحه ضدهم، حتى أنهم قبضوا عليه واعتقلوه مع زملائه في مارس ١٩١٩ ورحلوهم إلى جزيرة مالطة.. ماذا فعلت زوجته العظيمة؟! قررت فتح مكتب سعد زوجها لزملائه في غيابه كما كان في حضوره لمواصلة الكفاح ضد الإنجليز.

وقد فوجئت صفية بحضور عشرات النساء إلى بيت الأمة، وكان أغلبهن متشحات بالسواد وكأنهن جئن للتعزية في ميت «فصرخت فيهن: «لسنا في مأتم.. إننا في ثورة».

واندلعت الثورة فى كل مصر منذ صباح ٩ مارس ١٩١٩، خرجت المظاهرات تندد بالإنجليز وتطالب بعودة سعد زغلول ورفاقه، ولم يسكت الإنجليز وكانت المعارك فى الشوارع، وقد قامت النساء بمظاهرة مشهورة فى ١٦ مارس ١٩١٩ ليقدمن احتجاجاً على الأعمال الوحشية التى قوبلت بها الأمة المصرية للمطالبة بحرية البلاد واستقلالها، توجهت المظاهرة إلى بيت الأمة حيث زوجة الزعيم، لكن الجنود الإنجليز منعوهن بالقوة!! وفوجئت صفية أم المصريين بضباط وجنود من البوليس بأمر من الإنجليز لتفتيش بيت الأمة.. بيت سعد الزعيم، تركتهم يؤدون واجبهم القبيح، لكنها لم تدع الضابط يمسك بصندوق «شكمجية» وصرخت فيه ألا يفتحها فهى خطابات من زوجها ووالدها واحتضنت الصندوق، وكانت صفية صادقة وهى تحتضن ذلك الصندوق وتصرخ فى الضابط، كان بالصندوق أجمل وأعذب وأرق خطابات غرام كتبها لها سعد زغلول، وكان بداخل الصندوق أيضاً منشورات الثورة وأسماء لها علاقة بالثورة، كانت صفية تقول إن زوجها تعود أن يكتب لها خطاباً غرامياً كلما تغيب عن البيت ليعوضها عن غيابه بكلمات حب وحنان، واستمر سعد زغلول يكتب لصفية خطابات الغرام إلى ما بعد سن الستين، فقد كان يؤمن بأن العمر لا يمكن أن يطفىء الحب.. اشتراك صفية فى الثورة كان واضحاً فقد عملت مع بعض السيدات على طبع عبارة «يحيا سعد» على الأوراق المالية التى معهن فأصبحت منشوراً، وإذا بالمصريين يكتبون على الأوراق المالية فى جيوبهم هذه العبارة التى جننت بالإنجليز.. كما صممت صفية علم الثورة من

الهلال والصليب، واشتركت بعض السيدات المسيحيات معها فى تطريز العلم، وأصبح العلم الوحيد الذى ترفعه المظاهرات فى ثورة ١٩ إلى أن أفرج الإنجليز عن سعد ورفاقه، وعندما أعتقل سعد زغلول للمرة الثانية وافقت السلطة الإنجليزية على سفرها معه، لكنها قالت: «سأظل فى القاهرة لأتم عمل زوجى.. وسأكون سعداً حتى يعود».

وبعد وفاة الزعيم سعد زغلول عاشت أم المصريين تجربة اضطهاد من خصوم زوجها، لكنها لم تنزو فى بيتها بعيداً عن الأحداث والمجتمع، كفاح طويل وعظيم لسيدة عظيمة بجوار رجل عظيم إلى أن رحلت عام ١٩٤٦ وقد دفنت بجوار زوجها، فى ضريح سعد الموجود إلى الآن، وكان بيت الأمة قريباً منه، لم تظهر عمارات تحجب الضريح عن البيت، حيث كانت صفية تطل على زوجها كل صباح إلى أن لحقت به.

من عام ١٩٩٨

أيام من عُمر مصر!

في حياة الشعوب أحداث تاريخية لا تنسى.. الجيل الذى عايش بدايات ثورة يولية تاريخها محفور فى ذاكرته، فقد عشنا سنوات فخمة مع الأحلام المبهرة، وصوت جمال عبد الناصر مثل الطائر المغرد بالخير. سبحنا فى بحور الأمل ومرحنا على شطآن الأمان، ومن شعارات الثورة، أرفع رأسك يا أخى. ورفعنا رؤوسنا. وبالنظام والاتحاد والعمل غيرنا مفاهيمنا، عايشنا فرحة تأميم قنا السويس، والاعتداء الثلاثى على أرضنا لتأديبنا، وسرنا فى مظاهرات لمساندة وطننا، ثم بدأنا نلاحظ أشياء كثيرة ولا نعرف مدلولها، وكنا نتساءل: «هو فى إيه؟»! إلى أن حدثت نكسة الحرب فى يونية ٦٧. تاريخ حفر فى ذاكرتنا. وقد ارتبطت صورة قائد القوات المسلحة عبد الحكيم عامر بالنكسة ولم نعد نحتفل احتفالاتنا المبهجة بتاريخ الثورة، لأن لعناتنا على تاريخ الهزيمة كان يطفىء بريقها إلى أن جاء يوم الانتصار ليحفر فى حياتنا تاريخاً عظيماً فى أكتوبر ١٩٧٣، وأصبحنا نركز على احتفال انتصارنا وأصبح الرئيس أنور السادات بطلاً للانتصار، كما كان عبد الحكيم عامر بطلاً للنكسة.

فى الشهور القريبة الماضية صدر للكاتب والباحث الصحفى رشاد كامل زميلنا العزيز كتابان مهمان عن هذين البطلين كتاب «زيارة جديدة للسادات» بطل الانتصار. صدر عن الهيئة العامة للكتاب. مكتبة الأسرة وكتاب عن «حياة المشير عبد الحكيم عامر» صدر عن دار الخيال فهل كان حقيقة بطلاً للنكسة؟!

١

من مقدمة كتاب حياة المشير كتب رشاد: «فى منتصف السبعينيات ساد المناخ السياسى والصحفى والفكرى درجة هائلة من الحرية والبوح والكتابة صدرت عشرات المذكرات والشهادات لأصحاب الأسماء اللامعة من الذين كانوا فى قلب كواليس الحكم والثورة، وأتاح لهم موقعهم أن يشاهدوا ويسمعوا ما لم نكن نعرفه ونشاهده ونسمعه، كان الطابع الغالب على هذه الكتابات التى صدرت وحتى الآن هو الدفاع الشديد عن حكم عبد الناصر إزاء الاتهامات التى طالت حكمه وعلى رأسها هزيمة ٦٧، وأغلب الكتابات نسبت الهزيمة بالكامل إلى المشير عبد الحكيم عامر، وفى زحام مولد هذه المذكرات خرج على استحياء شديد من يحاول الدفاع عن المشير عامر فى سطور قليلة». كتب رشاد عن حياة المشير قبل التحاقه بالجيش وكيف التحق به وكيف تعرف على جمال عبد الناصر، وكانت بينهما صداقة نادرة، وكما قال رشاد: إنها واحدة من أغرب وأعقد وأندر صداقات العمر، ولدت عام ١٩٣٧ وانتهت عام ١٩٦٧، أى مع النكسة عندما ألصق به لقب بطل النكسة.

وبداية قصة المشير عندما عين قائداً عاماً للقوات المسلحة، عندما أعلنت الثورة قيام الجمهورية عام ١٩٥٣ وكان محمد نجيب رئيسها الأول، كان لابد أن يعين واحداً من مجلس قيادة الثورة للقوات المسلحة بدلاً منه، لذلك اتجهت الأنظار إلى عبد الحكيم عامر لأنه كان يدبر شئون الجيش ويشرف على أموره ومحبوباً من الضباط، وكان لابد أن يرقى استثنائياً ثلاث رتب من صاغ إلى لواء، وقد قامت

معارضة داخل مجلس قيادة الثورة حول تعيين عامر، وتصدى لهم جمال عبد الناصر وقالها صراحة: «مستحيل أن أسلم أمر الجيش لشخص يكون غريباً عنا لأن هذا معناه أننا نسلم رقابنا لهذا الغريب». وانتصرت فى النهاية وجهة نظر عبد الناصر وأصبح رفيق العمر قائداً عاماً للقوات المسلحة، وبذلك أطمأن قلب عبد الناصر أن رياح الخطر لن تهب عليه فى يوم من الأيام، ومع ذلك كانت الأغلبية كما جاءت فى المذكرات التى جمعها وبحثها رشاد كامل ضد تعيين عامر قائدا، واجتمعت آراؤهم على أنه شخص مرح وطيب وقادر على إقامة علاقات شخصية حميمة وآخر ما كان يصلح له هو أن يتولى مسئولية الضبط والربط وأن يتابع عمليات قيادة القوات المسلحة البالغة التعقيد.

وتتوالى الأحداث تماماً كما فى الدراما الروائية، يرويها «رشاد» من المذكرات والشهادات التى كتبها معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة، أو الذين كانوا مقربين منهم لنجد فيها إجابة على تساؤلاتنا فى ذلك الوقت.. «هو فى إيه؟».

لقد أصبح المشير عبد الحكيم عامر الرجل الثانى فى النظام وبسط نفوذه على الحياة المدنية أيضاً، لكن ماذا حدث لصداقته مع ناصر؟ نفهم أنها بدأت تهتز منذ حرب ١٩٥٦، أى الاعتداء الثلاثى على مصر.

فقد كان لعبد الناصر ملاحظات قاسية على الآداء العسكرى للقوات المسلحة بقيادة عامر، حتى إنه عرض على ناصر استقالته من منصبه بعد انسحاب القوات المعتدية، لكن عبد الناصر استطاع أن

يسوى الخلاف بينهما، ثم عادت الأزمة بينهما بعد الانفصال عن سوريا فى الوحدة! واصبح الصراع بينهما على أشده فى عام ١٩٦٦، فقد استحوذ عامر على سلطات كثيرة فى يده قوى نفوذ أعوانه، ثم حكاية زواجه من الممثلة برلنتى عبد الحميد، وقد رواها رشاد من مذكرات برلنتى.. دراما رومانسية.

ومن خلال مذكرات المعاصرين لهما، وماذا فعل جمال، وماذا كان رد فعل عامر؟ ووصلت الأزمة بين الأثنين اللذين كانا صديقين إلى الذروة بعد نكسة يونية ٦٧ التى ألصقت بالكامب لعبد الحكيم عامر.

ومن الحكايات والمذكرات نقرأ حوارات بين ناصر وعامر، وكيف أن عامر رفض أن يترك منصبه فى قيادة القوات المسلحة مادام ناصر رفض أن يترك موقعه فى رئاسة الجمهورية، ولما قال له ناصر أن الشعب هو الذى رفض تنحيته عن الرئاسة، قال عامر وقد فاض به الكيل.. إنه طوال عمره لم يفتح فمه وأن ناصر جعله شماعة لأخطائه، حرب ٥٦ جعله مسئولاً عنها والانفصال عن سوريا كذلك.

وأن حكاية الشعب هذه الذى رفض تنحيته تمثلية لا يصدقها!

لقد أفصح عامر كثيراً أنه ليس مسئولاً وحده عن الهزيمة فى ٦٧، ومن كلماته التى كتبها المقربون إليه فى تلك الأيام البغيضة بعد النكسة عن عبد الناصر.. لازم يكون عمل ألف حساب وألف دراسة لقرار مصيرى مثل قرار الحرب فعوامل النجاح والفشل لازم تحسب وتدرس بدقة وعمق قبل فتح فمه بوعيد أو تهديد ويقول أهلاً وسهلاً

للحرب.. ويبدأها بالخطب والكلام.. وبعدما ترك المصريين لا يتصورون احتمال أى مخاطر يقول لهم.. كنا فاكرين اليهود حييجوا من الشرق جاءوا من الغرب!!

ثم تأتى النهاية المعروفة الغامضة لحياة المشير عامر.. هل انتحر.. أم قتل؟ وكانت تلك النهاية فى سبتمبر عام ٦٧، وكانت وفاة عبد الناصر أيضاً فى سبتمبر ١٩٧٠.

وعشنا سنوات الحزن والترقب والتغير، إلى أن استطعنا أن نفرح فى حرب الانتصار عام ١٩٧٣، وكان بطلها الرئيس أنور السادات.

• بطل الانتصار والسلام

فى مقدمة كتاب «زيارة جديدة للسادات» كتب رشاد كامل: «كانت شخصية السادات إنساناً وزعيماً حضوراً دائماً مليئاً بالحيوية والذكاء سواء اتفقت معه أو اختلفت. وطوال عشرين عاماً ومنذ رحيله لم تبهت شخصيته وزعامته، ولم تكن صدفة أن تختاره وسائل الإعلام العالميةو كأحد أبرز رجال القرن العشرين، وربما كانت عشرون سنة كافية للقيام بزيارة جديدة للسادات. زيارة إنسانية قبل أن تكون سياسية».

إن حياة أنور السادات دراما واقعية مليئة بالأحداث منذ طفولته وصباه وشبابه ورجولته، ولعل شخصيته المبهرة نجدها فى كلمات الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل كما جاءت فى كتاب رشاد: «كان الرئيس السادات شخصية مثيرة بكل المعايير، وكانت شخصيته متعددة الجوانب بحكم تكوينه الإنسانى وتجربته الحافلة

والثقافة التى ترسبت عنده من عنصر التكوين وعنصر التجربة.. وقد علمته الأيام أن يقابل الصعاب بصدر رحب، وفى السنة الأولى من رئاسته فإن أحلى ما كان فى شخصيته تجلى وتألق.. كان رجلا يريد أن ينجح فى مهمته الرئيسية وهى مأزق الحل والحرب. وقد راح يجرب ويتعلم بقلب مفتوح وعقل متفتح، وكان مستعداً لسماع كل الناس وجاهزاً للتفكير حتى فيما كان التفكير فيه ضرباً من المستحيل، وكان يمارس هذا كله ببساطة وأحياناً بمرح إذا سمحت له الظروف..».

وقد جمع رشاد كل ما يتعلق بحياة السادات منذ كان طفلاً إلى أن أصبح رئيساً للجمهورية فى الكتاب. لنقرأ فصولاً تعرفنا عليها من قبل وأخرى لم نعرفها ليبين لنا حياة بطل الانتصار والسلام. مثل الفصل الذى يتحدث عن السادات الذى يلعب بالبيضة والحجر.. ومثل مذكرات السادات فى السجن.. «٣٠ شهراً فى السجن».. ولشخصية السادات المتعددة الجوانب والتجارب فقد وجد رشاد أثناء بحثه أن السادات فى مذكرات يختلف تماماً عن السادات فى مذكرات أخرى من الذين عاصروه واقتربوا منه حقيقة، ومن رجال الحكم أو رجال الكتابة والصحافة.

ومع كل الاختلافات فقد دخل أنور السادات التاريخ بأخطر وأجرأ قرارين على وجه الرطلاق.. حرب أكتوبر ١٩٧٣ ومبادرة السلام ١٩٧٧ القرار الأول أصبح بعده بطلاً للحرب والقرار الثانى أصبح بعده بطلاً للسلام.. وفى السادس من أكتوبر ١٩٨١ دفع السادات حياته ثمناً غالياً فى سبيل هذا الوطن.

هذان الكتابان يمثلان دراما واقعية لحياة شخصين أثرا كثيراً في تاريخنا مثل الروايات الكلاسيكية النادرة التي تنسج خيوطها من آراء مختلفة عن الشخصية الواحدة. ووجهات نظر مختلفة عن الحدث الواحد.

من عام ٢٠٠١

عايدة.. وسنوات مع أفريقيا

• أفريقيا تحت الأضواء

في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين كانت قارة أفريقيا محط أنظار العالم، فبعد الثورة المصرية في شمالها وخروج الاحتلال الإنجليزي من مصر، توالت ثورات أخرى في أنحاء مختلفة من القارة تطالب باستقلالها من الاحتلال الأوروبي، في ذلك الوقت ساندت مصر وشجعت الدول الأفريقية للمطالبة باستقلالها وظهرت في الأسواق كتب كثيرة عن أفريقيا من كتاب ومؤرخين يحبون هذه القارة السوداء.. كما يحلو للعالم تسميتها، في ذلك الوقت قرأت عايدة العزب موسى - الكاتبة الصحفية التي تخصصت في الشئون الأفريقية على مدى سنين طويلة - كتاباً من هذه الكتب للعالم الإنجليزي والمؤرخ «بازل ديفيدسون» ومن الكتاب بدأ عشقها لأفريقيا المجهولة.. تقول عايدة:

«إن الكتاب الذى قرأته لهذا المؤرخ في نهاية الخمسينيات.. «أفريقيا تحت الأضواء» غير مسار حياتي. حفزني على الالتحاق بمعهد الدراسات الأفريقية بعد تخرجي في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم الصحافة. وحدد لي طريقي المهني. فتخصصت في الكتابة عن أفريقيا، وتقمصتني روح أفريقيا، واشتغلت بها وتوحدت معها كما قال «دي بوا» أبو الجامعة الأفريقية، لقد سيطرت أفريقيا على. إنها ليست بلداً إنها عالم متكامل، عالم خاص بذاته ولذاته، وشيء مدهش ورائع، إن أفريقيا هي الحدود الروحية للجنس

البشرى».. وقد جمعت عايدة العزب بعض الشخصيات الأفريقية وقدمتهم فى كتاب.

• شخصيات أفريقية فى السياسة والفن

صدر أخيراً عن مكتبة الأسرة.. الأعمال الخاصة.. تقول فى مقدمة الكتاب: إن اختيارها لهذه الشخصيات ليس لأنهم أفضل من غيرهم، وإنما جاء الاختيار لظروف فرضها الواقع الأفريقى واستوجبتها الأحداث، وكتبت فى مقدمة كتابها عن كتاب للمؤرخ الإنجليزى «بازيل ديفيدسون»:

قد يكون من غير المنطقى أن يتصدر موضوعات الكتاب، كتاب لرجل غير أفريقى لكنه وهب نفسه للكتابة عن أفريقيا وكرس حياته للغوص فى أعماقها، وبددت كتاباته ما قاله الأوروبيون الأوائل من أن أفريقيا لم تكن إلا قارة مظلمة فتتت قواها القبلية المفترسة، وإنها لم تخلف آداباً تميزها ولا فنوناً تصورها ولا صناعة، وجاء «بازيل» يسوق الدليل تلو الدليل يبدد هذا الزعم الخاطىء ويقيم دلالات مقنعة ومثيرة لم تعرض بهذا الشمول والوضوح من قبل عن الحضارة الأفريقية، وقد اكتشف المؤرخ الإنجليزى فى قارة أفريقيا حضارات عظيمة، وأخرى تطورت كانت موازية لغيرها من الحضارات التى قامت فى العالم، فماذا حدث لها؟ تساؤل يجيب عنه المؤرخ فى كتاب.

• عبء الرجل الأسود

يبحث المؤرخ الإنجليزى عن جذور الوهن الأفريقى وعدم استجابة القارة لتحديات التغيير والتطور وهو يطرح تساؤلات مهمة: لماذا أفريقيا صارت أكثر فقراً عما كانت عليه يوم الاستقلال؟

لماذا الانقلابات العسكرية والحروب الأهلية والفساد الجارى من مدد طويلة ؟ ! لماذا يبدو الأفريقيون يستغيثون بطلب النجدة والمساعدة من الخارج سواء كانت هذه المساعدة طعاماً أو وسائل مقاومة الجفاف ، ويشرح المؤلف الأسباب . . وعلى الرغم من الأسباب المؤلمة فهو ينهى كتابه بالتفاؤل . . إن المطلوب الآن هو الطاقة والإرادة السياسية لتوحيد المكاسب الإيجابية التى تفيد فى تنمية أفريقيا والتى لا تختلط بمطالب تغيير مناسب فقط للحكام السائدين ! وعلى القارة أن تنظر إلى ماضيها برغبة التعلم من دروس الماضى الإيجابية ، دروس تتعلمها حتى من خلال فترة الاستعمار وما بعده ، أما إلقاء اللوم على الاستعمار الجديد فلن يحل أية مشكلة من مشاكلها .

● **نحن نفضل الفقر مع الحرية على الغنى مع العبودية**

إنها مقولة مشهورة للثائر الهادىء «أحمد سيكوتورى» محرر غينيا وأول رئيس لها بعد الاستقلال ، وكان أول من ناضل فى المستعمرات الفرنسية لنيل الاستقلال عن فرنسا . . وقد أحدثت مقولته أو صيحته صداها فى كل أنحاء غرب أفريقيا المحتلة من فرنسا وطلبت الاستقلال ، ونعرف سيرة حياة هذا الزعيم العظيم الأفريقى من كتابة عايدة العزب عن شخصيته تقول عنه : «إن سيكوتورى زعيم كبير سيذكره التاريخ ، ونحن الذين عشنا شموخ الستينيات وآمال النهوض بالقارة الأفريقية لن ننسى هذا الزعيم الذى قادحركة «لا» ضد فرنسا والمجموعة الفرنسية ، والذى قطع علاقات بلاده مع إسرائيل غداة حرب ٦٧ من أجل نصرة الحق والشعب العربى . . كان زعيماً أفريقياً مسلماً يؤمن بشعبه وبمستقبله وبعقيدته» .

ومن الشخصيات التى اختارتها فى الكتاب شخصية «كوامى نكروما» الزعيم الأفريقى.. أول من دعا للجامعة الأفريقية وإنشاء حكومة موحدة لأفريقيا منذ مطلع الأربعينيات قبل استقلال القارة الأفريقية، وهذه الأفكار التى عمل على تحقيقها بعد أن أصبح أول رئيس لغانا هى التى جعلت الغرب يكرهه ورفاقه الزعماء الأفارقة يخشونه، وهى أيضاً التى عجلت بنهايته، وتؤكد الباحثة الأسترالية التى صاحبت نكروما على مدى خمسة وعشرين عاماً تعمل معه باحثة مساعدة وناشرة لكتبه، تؤكد أنه مات مسموماً فى كتاب نشرته عن سيرة نكروما.. فقد كشفت كيف خططت وكالة المخابرات الأمريكية للانقلاب بالإطاحة بنكروما واتهمت المخابرات بقتله بالسم البطىء.

وتتوالى الشخصيات السياسية التى اختارتها عايدة العزب فى كتابها لنعرف الكثير عن هؤلاء الزعماء وعن أوطانهم فى قارة أفريقيا.. ومنهم الذين عاشوا خارج القارة وكانوا أفريقيين من الجدود. لكنهم دعوا إلى وحدة افريقيا، وتزيح الخرافات الغربية عن الزعماء الأفارقة مثل «بوكاسا» امبراطور أفريقيا الوسطى الذى روجت عنه الصحف الغربية أنه من أكلة لحوم البشر وأن ثلاجته تمتلىء بالجثث الآدمية، وأنه كان يتلذذ بأكل لحم معارضيه.

• الأفريقية البيضاء التى هاجمت المستعمر والقس المصرى الذى أحب الفلاحين

وتختار عايدة العزب فى كتابها شخصيات أفريقية من الفنانين والكتاب مثل ملك الأسطورة الأفريقية الكاتب «آموس توتولا»

ومؤلفاته بين الأساطير الأفريقية والحكايات الرمزية، وتلخص رائعته الروائية «مدمن نبيذ البلح» وتحدثنا عن موسيقيين مجهولين من قارة أفريقيا، والروائى الصومالى «نور الدين فرح» الذى قابلته عايدة فى مؤتمر القمة الأفريقى الذى عقد فى مقديشيو عام ١٩٧٤ ودارت بينهما أحاديث عن الصومال وحرية الفرد وحكم العسكر، وكان وقتها يحكم الصومال «سياد برى» الذى كان الكاتب يهاجمه فى نظامه الديكتاتورى.. وتحدثنا عن الكاتبة الأفريقية البيضاء «نادين جورديمر» التى حصلت على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٩١، فهى أفريقية المولد فى جنوب أفريقيا ومؤلفاتها عن الحياة فى ذلك الجزء من أفريقيا الذى ظل تحت العنف والقمع الاستعمارى إلى سنين قريبة، وتحدثنا عن شخصية الأب «عيروط» وكان من أكثر أبناء جيله حباً للفلاح المصرى، ونتعرف على حياة الأب «هنرى عيروط» اليسوعى ذى النشأة القاهرية والتعليم الفرنسى فى فرنسا، والكتب التى ألفها عن الفلاح المصرى، ويعد كتاب «الفلاحون» من أكثر ما اشتهر من الدراسات التى وضعت عن مصر.

• **الحب خلف القضبان والانفصال خارجها**

تفرد عايدة العزب جزءاً كاملاً من الكتاب عن الشخصية التى أحببناها «نسلون مانديلا» سجين الحرية.. لقد قرأنا عنه كثيراً خصوصاً فى التسعينيات، كفاحه ضد الاستعمار فى جنوب أفريقيا وسنوات سجنه الطويلة.. وعشنا فرحة الإفراج عنه.

«كان يوم ١١ فبراير ١٩٩٠ يوماً مشرقاً من أيام نهاية الصيف فى جنوب أفريقيا، فقد أفرج عن سجين الحرية نسلون مانديلا بعد سبعة

وعشرين عاماً من السجن المتواصل، ويصف مانديلا لحظة خروجه بقوله: «عند بوابة السجن كان هناك مئات المصورين وكاميرات التليفزيون ورجال الصحافة وآلاف من المؤيدين.. تملكنى الذهول والانزعاج، فلم أكن أتوقع كل ذلك، وحينما دفع إلى فريق تليفزيونى بشىء غامق فروى الملمس تراجعت ظناً منى أن ذلك سلاح تم اختراعه أثناء سجنى! فأخبرتنى زوجتى «وينى» أنه مكبر للصوت، وحينما توسطت الجمع رفعت قبضتى اليمنى وحدث صخب هائل فلم أكن قد تمكنت من ذلك منذ سبعة وعشرين عاماً وأمدنى بفيض من القوة والبهجة وشعرت.. وكنت فى الحادية والسبعين.. أن حياتى تبدأ من جديد، وعندما عدت إلى منزلى تحققت أن ما تشوقت إليه دائماً وهو الحياة العادية فى منزلى لن يمكن تحقيقه».

تقدم عايدة العزب شخصية مانديلا من زاوية إنسان عادى يُحِبُّ ويُحَبُّ فقد كتب عنه الكثير من الناحية السياسية وتحدثنا عن حب «مانديلا» و«وينى» وكأنه أسطورة القرن العشرين، تسرد قصة الحب الجميلة التى جمعتهما، كان رمزاً للحب والتفانى والنضال والبطولة طوال سبعة وعشرين عاماً قضاها فى السجن يحلم بنظرة من زوجته، وبضمة من حنانها، ولم يسمح له برؤيتها وزيارتها له إلا بعد عشرين عاماً من سجنه! كتب لها خطابات كثيرة يبثها حبه وهيامه وأفكاره وآراءه. وكرست هى شبابها وحياتها فى العمل على نشر مبادئه وتعاليمه بين شعبهما فى جنوب أفريقيا، ذلك الحب كان قوياً وهما بعيدان لم تحدث جفوة بينهما ولم تفرق قوة بينهما لكن عندما خرج مانديلا استطاعت القوى المعادية أن تفرق بينهما.

وتدافع عايدة العزب عن «وينى» وتحكى حكايات الوشاية عنها لأنها أصبحت قوة ثورية ناقدة للحزب، فلم يرض رجاله المسيطرون عن هذا وعملوا على تشويه سمعتها وصورتها فى نظر مانديلا، وخيروه بين الحزب والزوجة فاختار الحزب والسلطة، وكان الفراق والطلاق، وقد كتب كل منهما كتاباً يحكى سيرته الذاتية، كتبت وينى كتابها بعنوان «روحى ذهبت معه» وكتب مانديلا كتابه «المسيرة الطويلة إلى الحرية»، ونعرف قصة الحب الجميلة من هذين الكتابين وسبب انفصالهما.

وتظهر «جراساماشيل» أرملة الرئيس الموزمبيقى فى حياة مانديلا، أمرأة مثقفة مناضلة، تصغره بحوالى ثلاثين عاماً، ويشعر معها بأنه مازال شاباً وينبض قلبه بالحب، وتبادله نفس الشعور، وقد تزوجا أخيراً قبل أن يتنحى مانديلا عن منصبه كرئيس دولة ورئيس للحزب لنائبه عام ١٩٩٩.

لقد استمتعت بالكتاب وبالشخصيات الأفريقية، ونشكر الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة العامة للكتاب على إتاحة الفرصة لمثل هذه الأعمال القيمة والجميلة بالظهور فى الأعمال الخاصة لمكتبة الأسرة، ونسأل الكاتبة أن تكتب عن رحلاتها المتعددة المثيرة فى قارة أفريقيا.. هذه الرحلات التى كنا نضع أيدينا على قلوبنا عندما كانت تخبرنا أنها مسافرة إلى مكان ما فى أفريقيا.

من عام ٢٠٠١

سحر النوبة .. وآهاتها

• جغرافيا قديمة وتريخ عظيم

فى تلك الأيام الباردة من شتاء هذا العام أبحرت جنوباً أبحث عن الدفء فى قصص وروايات للكاتب النوبى «حسن نور»، لكنى وجدت نفسى أغرق مع آهات بلاد النوبة، وقبل الدخول إلى هذه الآهات لنلقى نظرة على موقعها فى الجغرافيا القديمة وتاريخها العظيم، كانت بلاد النوبة القديمة تمتد من الشلال جنوب أسوان حتى أول قرية فى السودان، فى شريط ضيق على جانبى نهر النيل فى ثنية النيل الكبرى بين أسوان والخرطوم. وكان النوبيون فى عصر فجر التاريخ يتبعون نفس الأسلوب الحضارى الذى تبعه المصريون القدماء إذ دفنوا موتاهم كما تعود المصريون وصنعوا فخاراً مماثلاً لما صنعوه.

ويبدو أن سكان النوبة لم يستطيعوا السير فى مضمار الحضارة بالسرعة التى سارتها مصر بسبب مكان معيشتهم الجغرافى القديم فى مناطق ضيقة من الأراضى الخصبة الملاصقة لنهر النيل، تحوطها من الشرق والغرب صحراء وعرة جدبة، وبيئة طبيعية قاسية، ومع ذلك فبلاد النوبة القديمة مليئة ربما بالجزء الأكبر من الآثار والمعابد الفرعوية وأشهرها معبد أبو سمبل، وفى تاريخها العظيم حكم فرعون نوبى مصر لفترة زمن طويلة، وكانت الصلة وطيدة بين أبناء مصر وأبناء النوبة من قديم الأزل، ففى عصر الأسرة الأولى ظهرت النقوش تثبت مدى العلاقة بين المصرى وأخيه النوبى.

ويقول لنا التاريخ إن النوبيين قوم مسالمون يتصفون بالأمانة ودماثة الخلق، محافظون مازالوا يمارسون كثيراً من عادات قديمة ورثوا بعضها من عهود الوثنية والبعض الآخر من المسيحية علي الرغم من دخولهم في الإسلام منذ قرون عديدة، فهم من طباعهم التدين واحترام العقائد التي لازمتهم في جميع العصور.

وقد بدأت آهات النوبة منذ أوائل القرن العشرين مع إنشاء خزان أسوان ١٩٠٢ وغرق جزء من أرضهم، ومع التعلية الأولى للخزان عام ١٩١٢ غرق جزء آخر، ثم جزء ثالث مع التعلية الثانية عام ١٩٣٣ إلى أن غرقت النوبة القديمة تماماً بعد بناء السد العالى عام ١٩٦٤.

وقد واجه أهل النوبة المشاكل وتصاعدت الآهات التي عشتها في مجموعتين من القصص القصيرة «بحر الزين» و«خور رحمة» وفي روايتين «دوامات الشمال» و«بين النهر والجبل» للكاتب النوبي «حسن نور».

• زمان.. قبل أن تولد بزمان

عاش حسن نور طفولته في النوبة القديمة، حيث كان النهر مرتعاً للهو طفولتهم ودفء أهلهم، وقد تركها مع أهله مثل معظم الأهالي بحثاً عن الرزق والتعليم عندما بدأت المياه تغرق أراضيهم، ويحكي حسن نور خلال قصصه:

«احتجز الخزان المياه الآتية من الجنوب أمامه، ملأ النهر وفاض على حوافه، أغرقت الأرض التي كانت تعطينا الخير، فمات نواح

السواقى، كل شىء صار قاحلاً، فشد أبى وكل رجال النجع رحالهم وسافروا إلى الشمال، يتوحش شعوره بالغربة يرسل لنا لنسافر إليه».

ويحكى ما قاله عمه: «اسمع يا ابن أخى أقص عليك زمان زمان قبل أن تولد بزمان كانت الأرض هنا خضراء مثل التى رأيتها هناك تلف حول القطار الذى حملك إلى مصر المدنية. وكانت قواديس السواقى تحمل الماء وتصبه فى هذه الأراضى لترويها فتنفجر فى باطنها البذور، وتكبر السيقان حاملة الخير، وشواشى النخيل تتمايل فى العالى مختالة بنفسها، وننصب حارساً من جريد النخل بجلباب فتخاف العصافير والغربان فلا تقترب من التمر الذى يمسى رطباً فى آخر بؤونة. فتمتلىء النجوع بالحركة ويتقافز الفرح فى العيون، حتى كان الخزان اللعين الذى حجز الماء أمامه فامتلأ مجرى النهر وفاض على جانبيه وابتلع كل الأشياء إلا الرمال والحصى. فركب الرجال البوستة – وهى الباخرة – وسافروا إلى بلاد الله الواسعة». وعلى الرغم من ابتلاع مياه النهر لمعظم أراضيهم من تعلية خزان أسوان، إلا أنهم كانوا يعيشون فى الأجزاء التى لم تغمرها المياه، فالنهر حياتهم يتبركون به، وعندما يولد الطفل تحمله أمه فى احتفال السبوع إلى النهر ويقيمون طقوساً فرعونية ليباركوا الطفل من ماء النهر ويرددون:

«ووإلهى.. بارك هذا الطفل الذى وهبته لوالديه والذى غسل وجهه توا بماء النيل المقدس» ويتبارك بالنهر العريس ليلة فرحه، وليالى الفرح فى النوبة القديمة كانت تقام بعد جمع البلح من النخيل

ويأتى التجار ليشتروه وتقام الزفراح للذين يريدون الزواج فى ذلك المجتمع الذى كان عائلة واحدة. ويصف الكاتب فرحاً جماعياً:

«ازدحمت الساحة بالرجال من النجوع المجاورة، جاء الكثير يشاركوننا فراحنا، موكب العرسان يتجه نحو النهر، يتقدمه حملة الفوانيس ومن ورائهم العرسان يحوطهم وزراؤهم حاملو لفائف ثيابهم الجديدة التى التى سيستبدلونها بملابسهم بعد الخروج من مياه النهر التى ستباركهم، وحاملو الكرابيج ليضربوا من يخاف النزول إلى النهر»، وصف جميل وطقوس قديمة فى ذكريات بلاد غمرها النهر الذى أحبوه ومع ذلك كانوا يخشونه.

• صامدون مثل تماثيل الأجداد

ونسمع آهات النوبة مع التعلية الثانية لخزان أسوان من كلمات حسن نور:

«.. الزرع الأخضر الذى نعيش عليه سيبتلعه الطوفان والنخل والحب والذكريات الحلوة، وحتى القبور التى تضم العظام، وسنرحل وسيضيع منا الحب ويسكن الشتاء الأبدى القلوب، ونفقد كل شىء حلواً عشناه.. حتى الرضا».

وتذهب إليهم اللجنة من مصر لحصر الأراضى والبيوت لنقل الأهالى إلى منطقة أخرى غير التى ستغمرها التعلية الثانية للخزان.. والتعويضات قليلة!

«لماذا كتب علينا من دون خلق الله فى وطننا الطيب الشتات؟! ولماذا نضحى وحدنا وتقابل تضحياتنا بالجحود، لماذا تظلمنا حكومات الملك بدلاًمن أن تكافئنا. من منكم ياأبناء مصر يصدق أن

النخلة الولادة بلحاً تعوض بجنيه؟! أى والله ياإخوتى بجنيه واحد؟! لماذا لم نقاوم ونرفض بناء الخزان قبل إقامة المشاريع البديلة للأراضى التى ستبتلها المياه؟! لماذا وافقنا على التعويض المادى البخس ولم نطالب بالتعويض العينى. أرضاً بأرض وداراً بدار لو أنهم فعلوا ذلك ما تركنا قرانا».

ويصف حسن نور عدم استسلام أهل النوبة القديمة لثورة النهر بعد التعلية الثانية للخزان، فأخذوا يستصلحون أرضاً لم تغمرها المياه لارتفاع سطحها عن النهر، ويحفرون فى الأرض امتاراً عميقة ليجدوا الماء!

«.. وكان المغتربون الذين جاءوا إلى النجع ليحضروا عملية الحفر فى التعلية الثانية للحزان ينظرون إلى ما يجرى حولهم فى دهشة ممزوجة بالإعجاب بهؤلاء الرجال الذين أصروا على أن يبثعوا الحياة فى أرض موات ليبدأوا الحياة من جديد دون أن يأبهوا لتهديدات الخزان والمياه التى فاضت فى النهر والتهامه أراضيهم. لكن سرعان ما تنقشع الدهشة عندما تتراءى لهم تلك التماثيل الضخمة الهائلة التى نحتها الأجداد فى قلب الجبل العاتى والتى مازالت صامدة تطل على النهر منذ آلاف السنين تذكرهم بذلك المجد الذى خلدهم».

ولم تستمر فرحة أهل النوبة بالأراضى الجديدة وعادت الآهات مع أول انفجار سمعوه للديناميت الذى يفجرون به صخور الشلال حيث سيكون موقع السد العالى، وذهبت إليهم لجنة جديدة من مصر، قال رئيسها لجمع الأهالى: «آراكم حزانى. لكم كل الحق فالأرض عزيزة على من عاش عليها، لكن الأرض التى ستنتقلون إليها سيكون لها

نفس سمات هذه الأرض وظروفها ، وقد راعينا أن تكون الدور مثل دوركم وسنوزع عليكم أراضى خصبة تعود عليكم بالخير » ، وسألوه :

« هل يجرى هناك نهر مثل نهرنا ؟ » لقد ضحكت علينا حكومات الملك إبان بناء الخزان والتعليتين وكل ما نخشاه ألا تصدقوا معنا مثلهم » قال : « تعرفون أن الثورة قضت على هذا العهد » !

• وعود زائفة وآمال خائبة

فهل صدقت وعود الثورة مع أهل النوبة القديمة قبل أن تغرق كل قراها تحت بحيرة السد العالى ؟ !

لقد هجرتهم حكومة الثورة إلى صحراء كوم إمبو التى تختلف اختلافاً شديداً عن طبيعة قراهم التى كانت كلها تطل على نهر النيل ، ولا نيل هناك فى مواقعها الجديدة . والبيوت فى النوبة القديمة كانت واسعة وكل دار تحطيها أرض فضاء وصفها حسن نور فى قصصه بحب ونشاهدها فى الصور القديمة بإعجاب ، عكس الدور التى بنتها الحكومة للمهجرين ، فهى متلاصقة واطئة ، كما أن بعض النوبيين لم يحصلوا على دور عوضاً عن دورهم التى كانت فى النوبة القديمة بحجة عدم تواجدهم أثناء عملية الحصر عام ١٩٦٠ ، وكان النوبيون يأملون الكثير فى حكومة الثورة وإنها ستنصفهم بعد الظلم الذى وقع عليهم ، وتقابل تضحياتهم بما يليق .

وتعوضهم عن سنوات الفاقة التى عاشوها مغتربين عن قراهم ، وتغير من شكل الحياة البدائية بعد طول إهمال ، كانوا يأملون أن يستوطنوا الأراضى المرتفعة عن منسوب المياه فى السد العالى بإقامة

المدن والقرى الجديدة. فالأراضى السهلية الواسعة حول بحيرة السد ووجود وديان فيها مثل وادى العلاقى والسيالة كانا معروفين لدى المسئولين قبل عملية تهجير أهل النوبة! لقد أمل النوبيون خيراً فى حكومة الثورة لكن سرعان ما تبدد ذلك الأمل. ويقول البعض منذ إنشاء خزان أسوان فى أول القرن العشرين وحكومات مصر اهتمت بالآثار ولم تهتم بالإنسان! وقد قال علماء الآثار من زمن إنه لولا تنفيذ مشروع الخزان لما كانت هناك فرصة للكشف عن مناطق الآثار ببلاد النوبة، وقبل أن تغرق النوبة القديمة عملوا على نقل معظم آثارها وأهمها معبد أبوسمبل فى مكان يليق بها ولم يهتموا بناسها لينقلوها إلى مكان يليق بهم وبتضحياتهم.

فى هذه القصص القصيرة والروايات للكاتب النوبى حسن نور ركزت على آهات النوبة ولم ألخص الدراما الإنسانية فيها. عشت معهم سحر بلادهم القديمة فى حكايات وذكريات جميلة وعادات وتقاليد قديمة، عشت معهم الحب والفرح والحزن، الترقب والأمل، الهلع والتهجير والغرق.. عشت معهم آهة كبيرة.

من عام ٢٠٠٢

كامل والنساء.. والفن.. وباريس

الذى لا يعرف الكاتب الكبير كامل زهيرى ويرى عنوان كتابه «أنا والنساء» وصورته على الغلاف مع حسناء، يعتقد أنه سيقرأ عن كازانوفا العصر، أو دون چوان مصر، لكن يفاجأ بنساء كامل زهيرى اللاتى عرفهن شخصياً من رئيسات حكومات وقائدات، وفنانات رسامات وكاتبات وممثلات واللاتى عرفهن من التاريخ القديم والحديث، ومن سير حياة العظماء من الكتاب والفنانين، ربما فى أول الأمر يصدم القارىء بهؤلاء النساء لكنه لا يمنع استمتاعه بحكاياتهن التى يرويها كامل. يحكى عن أشكال وألوان من النساء مثلاً عن «مارى كورى» مكتشفة الراديوم التى حصلت على جائزة نوبل مرتين، وعن الممثلة الفرنسية «بريجيت باردو» التى كتبت مذكراتها أخيراً ويقول عن مذكراتها: «لم أقرأ مذكرات لسيدة بمثل هذه الوقاحة أو الصراحة، يحكى عن نساء سمعنا عنهن فى التاريخ القديم والحديث، ونساء لا نعرفهن مثل حكاية الجاسوسة الفرنسية «ميشلين كاريه» التى كانوا يلقبونها بالقطة. فقد انضمت للمقاومة الشعبية أثناء الحرب العالمية الثانية، وقدمت خدمات هائلة لوطنها لكنها خانت وطنها عندما وقعت فى أيدى الجستابو الألمانى لتنجو من الإعدام، وبعد الحرب اكتشفت فرنسا مساعدتها للألمان وحكم عليها بالإعدام، ولم تفلح دفاعات المحامين عنها لخدماتها فى المقاومة، وقد خفف عليها الحكم بالسجن المؤبد تقديراً لبطولاتها السابقة.

ويحكى عن زوجات وحبيبات وعشيقات رجال الفن والأدباء وتأثيرهن عليهم.

كتاب كامل زهيرى ليس فقط هو والنساء، بل نجده.. هو والفن. إنه يبعث إلينا من الماضى أسماء أعلام الفن التشكيلى والكتاب الكبار فى مصر والخارج، ويذكرنى مع بعض أبناء وبنات جيلى بتفتح مداركنا الفنية وتذوقنا للفنون فى أواخر سنوات الخمسينيات وسنوات الستينيات، كنا نذهب إلى معارض الفنون التشكيلية ونحضر الندوات المصاحبة لها، ونتعرف على رسومات الفنانين العظام من مطبوعات فى مكتبة الفن الحديث، ولأن كامل من عشاق الفن التشكيلى ويقول إن فى داخله رساماً نائماً، ومتعته فى التجول فى المعارض الفنية والمتاحف فقد دعى من زمن إلى محو أمية العين ومشاهدة المعارض الفنية، يقول: «... وقد أصبحنا الآن نعيش عصر الصورة واللون لأنه عصر السينما والتليفزيون، ولكن أمية العين مازالت تلاحقنا، ولذلك دعوت منذ سنين إلى محو أمية العين لأن الثقافة لا تكتمل بالعقل واللغة فقط بل بتدريب السمع وتهذيب البصر، فاللون له صوت ورنين وصدى والرسم همس ولمس حين يهمس النور وسط الظلال..

ربما تحدث كامل زهيرى عن الفن التشكيلى زمان فى العالم كله، فإذا كان الفنان التشكيلى زمان أراد أن يمتع أبصارنا بفنه الجميل فمعظم الفنانين الآن يريدون صدمة أبصارنا. نشاهد هذا فى بينالى القاهرة أوالاسكندرية حيث يعرض فنانون من العالم ومن مصر رسومات معظمها مخيف أو أعمالاً بلا معنى جميل.. ونخرج من

بعض المعارض الفنيـة مكتئبين منهكين كأننا نخرج من كوابيس أحلام ليلية.

وفي الكتـاب نجد كـامل زهيـرى مع فن العمـارة، يقـول: «تعلمت منذ الصبـا هواية أو فن التسكع بين الحوارى والشوارع ووسط المبانى والعمـارات، وبدأت أول دروس هذا الفن بـالمشى فى شـوارع القـاهرة لأنى قـاهرى المولد والمزاج، وكـان السفـر أول درس فى قـراءة المبـانى واكتشـاف أخبـارها وأسـرارها وهويت دراسـة العمـارة وتاريخهـا وأنواعها وشغفت بالمسـاجد والأسواق القديمة فى القاهرة الفاطمية والمملوكيـة والعثمانيـة، وكـرهت غـابات الأسـمنت المسلح الذى تتشابه فيه العمارة».

ومع الوقت تضخمت هواية كـامل فى قـراءة العمـارة حتى قـاربت الدراسـة لأنهـا تكشف له صلة الزمـان بالمكان، والتـاريخ بالجغـرافيـا، ومن عشق كامل للأماكن القديمة وتاريخ من كان فيهـا يحكى لنا عن القصـور التى هدمت والتى لم تهدم وحكايات من كـانوا يسكنونهـا، يتحسـر على قصر هدى شعراوى الذى تحول لعدة سنوات إلى متحف الفن الحـديث وكـان فى شـارع قـصـر النيـل، وبعـد هدمـه ظلت الميـاه الجوفيـة من أرضـه تمنع بناء أى مشـروع فوقـه، وتثار ذكـريات جيلى بسـنوات الفن الجـمـيل، كم من المرات ذهبنا إلى ذلك القـصـر؛ وشـاهدنا فيـه أو.. فى حديقتـه معارض فنيـة وحضرنا ندوات أدبية واستمعنا إلى الموسيقى الكلاسيكية، وتحسرنا على هدم ذلك المكان المعمارى التاريخى الجميل، قالوا إنه أيل للسقوط وأعتقد أن الثقافة هى التى كانت أيلة للسقوط.

من عشق كامل زهيرى للأماكن القديمة التى أتبع تاريخها فى معشوقته القاهرة تابع تاريخ تلك الأماكن أيضاً فى معشوقته باريس وحكى عن قصورها وأجوائها القديمة. واكتشف المكتبة التاريخية لمدينة باريس. ومنها اكتشف البيوت التى أقام فيها المصريون، مثل طه حسين وتوفيق الحكيم ومن قبلهما المهندس محمد مظهر الذى كان ضمن بعثة من البعثات الأولى التى قادها رفاعة الطهطاوى.. « .. هدتنى مكتبة باريس التاريخية إلى أسرار باريس التى لا نجدها فى الكتب وأغوانى ذلك للدعوة إلى إنشاء مكتبة عن القاهرة لتجمع كل ما نشر من خرائط وكتب للرحالة العرب والأجانب وكتابات المؤرخين والجغرافيين وصور الرسامين عن القاهرة، والغريب أن يتحقق هذا المشروع منذ ثلاثة أعوام فقط».

عاش كامل زهيرى فى باريس سنوات دراسته فى حقوق جامعة السوربون فى أولى سنى الشباب، عشق باريس، وعندما يعشق الإنسان فى أول عمر الشباب يظل هذا العشق مرتبطاً به ولا ينقطع كامل عن زيارة باريس إلى الآن.. يقول: « .. إنها الألفة القديمة.. وهى أقوى من الحب لأن الحب قد ينتهى ويطويه الزمن والألفة هى التى تستمر، ولعلنى أصبحت الآن أحمل جزءاً من باريس معى أينما ذهبت».

بلاد كثيرة فى العالم زارها كامل وحكى عنها، لكن تبقى أجمل حكاياته عن باريس، من زمن وأنا أحب قراءة ما يكتبه عنها، واستمتع بما يحكيه عنها، وهو يحكى كأنه يأكل حلوى شهية يحبها.

ربما فهمت عشقه لباريس عندما زرتها من سنوات، بالرغم من أننى وجدتها مثل المدن القديمة الأوروبية التى زرتها إلا أنها ذات سحر خاص، لكن فى ذلك الوقت كانت مزدحمة بالغرباء وخفت أن أضيع أو أتوه كنت أحلم بها قبل أن آراها فى الأغنيات الفرنسية العاطفية. كنت أحلم أن أرى المرأة الفرنسية كما فى أغنية «مدموازيل دى بارى» الفرنسية الأنيقة الحالمة العاشقة، لكن قابلت نساء مسرعات فى الطريق يرتدين ملابس عادية ويتحدثن كما يسرن بسرعة وصوت مرتفع، وقابلت نساء جادات غير حالمات فى حركة تحرير المرأة واشتكين من الرجل الفرنسى الذى كنت أحسبه أكثر رجال العالم عاطفياً، كنت أحلم أن أتسكع مع أغانى «إيف مونتان» فى الشانزيليزيه، لكن الشارع كان مزدحماً بالناس غارقاً فى المطر، وكان الباريسيون وقتها يحاربون إقامة العمارات الجديدة المرتفعة بفكرة أن العاصمة يجب ألا تفقد طابعها القديم، لكن الاعتراضات شىء ومطالب الحياة شىء آخر. لابد أن كامل زهيرى عشق باريس عندما كانت بطابعها القديم غير مزدحمة أكثر من اللازم بالغرباء من كل جنسيات العالم عندما كان يدرس هناك ولديه الوقت الكافى للتسكع فيها، وعندما يزورها الآن فهو يبحث عن الأماكن القديمة التى عاش فيها وأحبها، ولابد أنه يغمض عينيه عن أى قبح ظهر فيها.

• **من كلمات كامل فى كتابه «أنا والنساء»**

«علمتنى صحبة الشعراء الغواية، وكنت أظن أن أعذب الشعر أكذبه، ولكنى اكتشفت بعد صحبة الشعراء أن أعذب الشعر

أصدقه، فالشعر هو خلاصة الفن، وفن الخلاصة، وكما تعلمت من صحبة الشعراء فن الخلاصة تعلمت من صحبة الرسامين أن الفن ألحان. ففى اللون موسيقى، وكان ترى اللون قد تسمعه، فالأذن قد ترى كما تسمع، والعين قد تسمع كما ترى، ولا يختلف سلم اللون عن سلم اللحن، وحتى العمارة لابد فيها من الموسيقى لأن العمارة الجميلة تصبح معزوفة من الأحجار والألوان».

من عام ١٩٩٧

أسطورة الخميسى..

إنها ليست قصة حياة إنسان عاش مناضلاً، فناناً، وأيضاً صعلوكاً، إنها أسطورة هذا الإنسان الفنان، الكاتب الراحل عبد الرحمن الخميسى. كتبها حباً وفناً الكاتب والصحفى يوسف الشريف فى كتاب «عبد الرحمن الخميسى.. القديس، الصعلوك» الذى صدر حديثاً عن الهيئة العامة للكتاب.

• بداية الأسطورة

كتب يوسف الشريف عن مولد الخميسى في قرية منية النصر فى محافظة الدقهلية، إن شهادة ميلاده فى نوفمبر عام ١٩٢٠ صدرت من قسيمة طلاق والدته، ونقل من مذكرات الخميسى التى لم يكملها: «... كانت والدتى حضرية من بورسعيد، وكان والدى قروياً بسيطاً يعبر عن أفكاره وعواطفه الريفية بأسلوب خشن، وكانت هى تمثل المدينة الساحلية المصقولة المضاءة بالكهرباء، ولم يكن من المستطاع أن يعيش النقيضان تحت سقف واحد فتم بينهما الانفصال وضيعانى وأنا طفل صغير».

وعاش الخميسى مع أمه إلى أن بلغ السادسة من عمره مدللاً بالحنان والاهتمام إلى أن اختطفه والده ليعيش معه فى قريته. وفى تلك السن الصغيرة أدرك الطفل الفرق الشاسع بين بورسعيد المدينة والقرية. وفى سن السابعة أرسله والده ليعيش وحده فى غرفة فقيرة

فى قرية بها مدرسة ابتدائية ليتعلم، وعرف معنى الوحدة والمسئولية عن نفسه، وهو طفل يحن إلى حنان أمه وحضنها فليس غريباً أن يبدأ كتابة الشعر وهو فى عمر الثامنة.

ويكتيب يوسف: «منذ ذلك العهد البعيد بالطفولة حفر الألم والتأمل والعطف بالمساكين والأخذ بيد الضعفاء والضائعين أخاديد عميقة في قلب الخميسى وضميره، فكان عطاؤه بلا حدود منذ أصبح يملك القدرة على العطاء لكل من يستنجد به من محن الحياة، ويستظل بشجاعته المظلومون من هجير ظالمهم، يستوى فى ذلك ظلم الحكام للرعية أو الرؤساء لمروءوسيهم أو ظلم طبقة اجتماعية لغيرها. ومن هنا أحسب أن اختيار الخميسى للاشتراكية فى شبابه منهجاً لحياته وطريقاً سياسياً للعدل والمساواة كأنه قدر محتوم لا فكاك منه»... ليس غريباً أن ينادوه بالقديس.. وكما كتب يوسف: «والشاعد أن عبد الرحمن الخميسى الذى خلع عليه أصدقاؤه وتلاميذه ومريدوه لقب القديس. وشاع وانتشر منذ الخمسينيات كان دوماً عند حسن ظنهم، مقاتلاً جسوراً وعنيداً وقاهراً للمستحيل يناصر المظلوم حتى ينتصر».

من خلال الوحدة والحرمان من أمه فى طفولته ولم يجد من يبوح له بمشاعره، تولدت لدى الخميسى ملكة الشعر وساعده على هذا بعد ذلك قراءته لكل ما تقع عليه عيناه من القصص والأساطير بما يفوق عمره، وقد عبر ليوسف الشريف عن سر إبداعه وهو مازال صبياً إنه قد عشق الأدب والفن وبدأ فى كتابة المواويل الشعبية التى حاكى بها مواويل المطربين فى الريف، وهو فى الثامنة من عمره، وتتوالى

أشعاره وهو فى المدرسة الثانوية بالمنصورة تؤنس وحدته وتنمى قوته، وقد أرسل بعض قصائده إلى مجلات فى القاهرة، وفوجىء بأستاذ له يسأله: هل هو الذى نشرت له تلك القصيدة؟! وبدأ حلمه يقوى بالعاصمة خصوصاً أنه لم يعد له مكان مع أمه أو والده فقد تزوج كل منهما وأنجب بناتاً، ويكتب يوسف «وكان الخميسى كثيراً ما يكرر فيما بعد أنه يريد أطفالاً ذكوراً كثيرين جداً لكى يحفظوا اسم الخميسى، وربما لهذا السبب أنجب ثلاثة عشر ولداً وبنتاً من ثلاث زوجات، وكان يقول: أنا أفرح بالعزوة لأنى لم يكن لى أخوة ذكور.. وكان يسعد حين يجتمع حوله أكبر عدد منهم ويعاملهم كإخوة وأخوات ويسألهم ضاحكاً أنت ابن مين من زوجاتى وأنت أمك اسمها إيه؟».

• الصعلوك الموهوب فنياً

يقول الخميسى: «مازلت أذكر ذلك اليوم من عام ١٩٣٦ الذى تركت فيه قريتنا هارباً من ضيقها لأنعم بحياة العاصمة الكبرى، كان عمرى يومئذ ١٧ عاماً وكنت قد بدأت أنظم الشعر وأتعلق بالأدب والفن. وقد صور لى الوهم أننى سأحدث انقلاباً فكرياً فى العاصمة وسأغير وجه الأدب والفن وأضع لهما مفاهيم جديدة..». وطبعاً لم تتحقق أحلامه مباشرة، وعرف فى القاهرة الجوع والفقر وعدم الترحيب فى المجلات، تقلبت الحياة بالخميسى فأشتغل فى محل بقالة، وكمسارياً فى أتوبيس، ومعلماً فى مدرسة أهلية، ومصححاً فى مطبعة وغير ذلك من هذه الأعمال، لكنه أدرك ضياعه

فى تلك الوظائف التى كانت تبعده عن مقصده الأساسى فى الأدب والفن، واتجه إلى مقهى الشعراء فى باب الخلق ليكتب الأغانى والمونولوجات حسب الطلب من المطربين والملحنين الذين كانوا يرتادون ذلك المقهى، ويكسب قوت يومه.

وظهرت له موهبة جديدة فى العزف على آلات موسيقية وانضم إلى فرق الأفراح وقت الحرب العالمية الثانية وموهبة أخرى فى التمثيل حيث انضم إلى فرقة مسرحية شعبية جوالة لصاحبها الفنان أحمد المسيرى. كما تفجرت موهبته الشعرية، وقد روى الخميسى لصديقه يوسف الشريف عن تلك الفرقة وعن المسيرى الذى كان معلماً ومؤلفاً مسرحياً وغنائياً، ويقول يوسف: «كانت دائماً أشعر من خلال رفقتى للخميسى أن تلك المرحلة الخصبة التى عاشها مع فرقة المسيرى تركت بصماتها العميقة فى شخصيته وفى نظرته للحياة وتعامله مع صنوف البشر ومجابهته الجسورة لمختلف المصاعب، وكانت أولى مواهب الخميسى التى تفجرت أثناء عمله مع الفرقة إتقانه ونبوغه فى تأليف المسرحيات والمسلسلات الإذاعية وفن التمثيل والإخراج والموسيقى والتلحين إلى جانب إطلاق السخريات الضاحكة وحبك المقالب الجهنمية».

ولم يبخل الموهوب فنياً فى اكتشاف مواهب جديدة وتقديمها، وكان أولها نجار فرقة المسيرى محمود شكوكو الذى كتب له الخميسى مونولوجات واسكتشات غنائية ولحنها له أيضاً. وقد اختار الخميسى لشكوكو زيه التقليدى وطلب صنع تمثال له والذى أصبح سلعة رائجة فى ذلك الوقت. وبعد ذلك بسنتين فى عام ١٩٥٨

اكتشف سعاد حسنى ومحرم فؤاد ليقوما بالبطولة لفيلمه الذى كتب قصته «حسن ونعيمة» بعد نجاح القصة كمسلسل إذاعى. إننا نجد هذا الموهوب يشق طريق الفن والأدب بانتقاله من مرحلة لأخرى فى حياته بمعرفته وصداقته لكبار الشعراء فى القاهرة وبدخوله إلى الإذاعة المصرية كاتباً لمسلسلات إذاعية ومخرجاً لها، لصاحب فرقة مسرحية، لكاتب صحفى مشاكس، لشاعر رومانسى عاشق، لمتعاطف مع الغلابة، لمناضل سياسى يزج به فى سجون المحروسة.

• المناضل سياسياً

يسرد يوسف الشريف حياة الخميسى مع كتاب مصر وشلة كامل الشناوى المشهورة ومجالسهم الثقافية ومقالبهم الخشنة، وصداقته لمحمد عودة الكاتب السياسى الاشتراكى الذى لعب دوراً مهماً فى حياة الخميسى.. «.. لقد رفض الخميسى القولبة العقائدية صحيح أنه انخرط فى التنظيمات اليسارية، لكنه ظل دائماً خارجها لم يعرف كعنصر فعال فى نشاطاتها إلا إذا كان الأمر يستدعى المشاركة فى واجب وطنى. كان بتكوينه الشخصى ومؤهلاته الثقافية وخياراته السياسية أقرب إلى طبيعة الطائر المفرد الذى يرفض القيود ويهوى التنقل بحرية وكانت صداقاته لكل ألوان الطيف الفكرى والسياسى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، لذلك كانت دراما غريبة أن يسجن الخميسى فى أزمة مارس ١٩٥٤ التى واجهت الثورة على أنه ماركسى معارض للديمقراطية، رغم اعتراف أقرانه أنه ليس كذلك فهو بتكوينه المزاجى لم يكن مؤهلاً على الإطلاق للتصنيف

الأيديولوجى». وبقوة الصعلوك فى داخل الخميسى لم ييأس بسجنه بل تحولت الحياة القاسية فى السجون التى سجن فيها إلى ألوان من التسلية فهو فى كل يوم يبتكر أسلوباً للتعايش مع الواقع الأليم. يؤلف الأغانى ويلحنها ويغنيها، يؤلف المسرحيات ويخرجها ويمثلها مع المعتقلين السياسيين والمجرمين العتاة. يحبك المقالب للضباط والحراس، يسخر منهم أو يسرى عنهم حتى أحبه الجميع ودانوا له بالطاعة كما لو أنه صاحب طريقة!

ويخرج الخميسى من السجون بعد عدة سنوات ليزوال حياته الفنية ويبدع أكثر، يحدثنا يوسف عن إبداعات الخميسى فى الإخراج السينمائى والمسرحى، فى كتابه القصص الوطنية للسينما، فى تلحين أغانٍ، فى تعريب وتأليف أكثر من أوبرا، ويعطى لنا نماذج من أشعاره الوطنية والعاطفية.

• هجرة القديس

لقد دار فى خلد البعض أن الخميسى الذى تعرض للاعتقال ونقل بعيداً عن عمله فى عهد عبد الناصر سوف ينضم طائعاً باختياره إلى كتيبة الصحفيين والكتاب الذين انبروا للهجوم على عبد الناصر وعهده، وكان المطلوب من المسئولين فى صحيفة الجمهورية التى كان يكتب فيها حثه وتنبيهه إلى دوره المرتقب ولم يرض بذلك الدور، ويبدو أن المخبرين قد نقلوا ما يردده الخميسى فى سهراته من نقد للرئيس السادات فقرر الخميسى أن يريح ويستريح. أن يفلت بجلده، فعشقه للحرية لا يحتمل مزيداً من السجون، قرر الذهاب

إلى بيروت مدعياً أنه سيخرج فيلماً في ربوع لبنان وبصحبته ابنه أحمد المكلف بكتابة حوار الفيلم».

«.. ولم يدر بخلد أحد حينذاك أن بوسع الخميسى الهجرة في هذه السن، والتخلى عن شقته وشركته الفنية للسينما - مصدر الدخل شبه الوحيد لأسرته الكبيرة - ولم يتصور أحد أن باستطاعته تغيير نمط حياته وعوالمه وأصدقائه، هكذا بضربة واحدة أن يبتعد عن مصر، لم يكن ذلك ليخطر على بال أحد». وفي أواخر عام ١٩٧٢ سافر الخميسى وابنه إلى بيروت، ونزل من الباخرة بصناديقه الحديدية المليئة بمتعلقاته وهو لا يملك نقوداً، فقد ترك كل ما لديه لأسرته الكبيرة، ومع ذلك وجد من يدفع ديونه من اصدقائه المصريين واللبنانيين إلى أن بدأ يكسب عيشه من الكتابة في الصحف، وأرسل ابنه إلى موسكو ليكمل دراسة الأدب بجامعتها، لم تطل إقامة الخميسى في بيروت فقد كانت بغداد تتطلع وقتها لتكون مركز المعارضة العربية لنظام السادات حيث اجتذبت عدداً من المثقفين الذين انسلوا تباعاً من مصر، وهكذا انضم الخميسى إلى كتاب صحيفة الثورة العراقية، وبالرغم من شخصيته التي شدت الإعجاب هناك وبداية تأليفه لعمل مسرحى غنائى بتكليف من زارة الثقافة إلا أنه قرر ترك العراق، تحالفت الأسباب مع الظروف إيذاناً بالرحيل إلى غربته الأخيرة في موسكو.

• نهاية الأسطورة

كان الخميسى قد تلقى عروضاً من اصدقاء له في باريس وروما للعمل والإقامة، وعرضاً من ليبيا لإصدار مجلة «ثقافية» في أوروبا،

لكنه قرر الرحيل إلى موسكو فهناك ابنه أحمد يواصل دراسته وفيها اصدقاء عرفهم فى القاهرة ثم إن بقاءه فى موسكو كان رمزاً لموقف كان حريصاً عليه على الأقل من باب الوفاء لموقف الاتحاد السوفييتى المناصر لمصر والقضايا العربية.. يقول يوسف: «... والحقيقة أننا كنا نسمع فى القاهرة فيما يشبه التضخيم أو التهويل عن المكانة التى وصل إليها الخميسى فى الاتحاد السوفييتى حتى جاء تقليده وسام لينين للسلام فى منتصف الثمانينيات تقديراً لدوره كواحد من أبرز المناضلين والمبدعين فى العالم الثالث، وعندما سمعنا عن مرضه فى آخريات حياته لاحت لنا فرصة لزيارة الاتحاد السوفييتى خلال رحلة نظمتها شركة مصر للسياحة بمبلغ زهيد وكنا ثلاثة من اصدقائه، محمد عودة، جلال عارف، وأنا».

ويحكى يوسف عن لقائهم مع الخميسى وكيف أثر على مظهره ونشاطه مرض فى القلب والرئة لكن الذى أصابه فى مقتل حكم أصدرته محكمة القيم التى تشكلت فى حكم الرئيس السادات فى سبتمبر ١٩٨١ وكان الحكم بإسقاط الحق المدنى عن عبد الرحمن الخميسى بمعنى أنه لم يعد له حقوق كمواطن مصرى، وكان الخميسى قد كتب قصيدة فى موسكو ضد السادات بعد كامب ديفيد.

ومات الخميسى عام ١٩٨٧ فى موسكو وكما أوصى ابنه أن يدفن جوار شجرة فى المنصورة لأنه سيعود عصفوراً ويأوى إلى شجرة يغنى من فوقها.

من عام ٢٠٠١

انجلترا.. هارد لك

لفت نظرى اسم الكتاب المرسل لى.. إنجلترا هارد لك.. أزجال بإهداء لطيف من التحيات والحب من المؤلف، قدم الكتاب الكاتب الكبير ألفريد فرج. قرأت: «علاء جنينة زجال سكندرى، وإنى لأعجب هل لمدينة الأسكندرية قدرة على تكوين ابنائها بروح المرح والسخرية.. بيرم التونسى سكندرى وقبله عبد الله النديم سكندرى وبعده أحمد رجب وعلاء جنينة من أبناء هذا الثغر الجميل الضاحك. وقد عرفت علاء فى لندن وكان يصدر مجلة يكتبها بخطه ويحشد فيها النظرات والعبرات الفكاهية الساخرة من الغير ومن النفس ومن الغربة..» قلبت الصفحات لأقرأ بعض هذه الأزجال من باب المعرفة لكن وجدت نفسى أقرأها كلها كأنها رواية متصلة ساخرة عن حياة شاب فى الغربة.. بدأها برحلته إلى لندن.. أنتقى منها.. «ياجاى على لندن فارد.. زى المارد.. ومعلق البلية وشارد. حيلك يافلان».. يحكى ما أصابه. «بصيت لقيت نفسك لايص.. دايخ حايس.. ياجاى فاكر نفسك فارس.. وبتاع نسوان..». ومنها.. «ولا حد راضى يدى لك.. قرش فى إيدك.. ولا أخ فى الغربة يشيلك.. فين الخلان».. ويختمها بقوله.. «ارجع ياصايع بلدك.. بوس إيد والدك.. وقوله.. يابا أنا ف عرضك.. أنا جاى جعان».

وتتوالى حكاية علاء فى إنجلترا وما قابله من تجارب. كتب بعض العبارات كما هى بالإنجليزية مكتوبة بالعربية مثل حكاية مع

ليليـان.. «قـالت لى وت يورنيم.. فـروم وير يوكـيـم.. تل مى ووت يور أيم..» أما عن الحب فى بلاد الإنجليز فيقول فى.. تيس التيوس.. «هنا فى لندن مـفـيش العـواطف.. ومـهـمـا تهىء وتمىء وتلاطف.. مـفـايش حب مجـانـى يابن المقـاطف.. مـعـاك الفلوس دغـرى حـمّل وشيل..» و.. «عشان تبقى روميو ياتيس التيوس.. لازم لك مسدس معـمـر فلوس.. ساعـتـهـا تعط وتنط وتبـوس.. وكل البنات لأجل قـرشك تميل».. يحكى عن الذين قـابلهم فى الغـربة.. «سكنت فى بيت كـاستلينا اليـونانى.. مع شـاب مصـرى زمـانى رمانى.. معكر حيـاتى بعـركـة ليلاتى.. ياعالم كـفـاية اللى فى كـفـانى..» و.. «وفى الغـربة يامـا نقـابل خـلايق.. مـا بين المكدّر وبين اللى رايق.. وبين المبهدل وبين اللى عايق.. وبين اللى ماشى جميل معجبانى».

ويبـدو أنه كـانت له تجـربة عـمل فى إذاعة «بى. بى. سى». ومنهـا يقول من خلال مقابلة له مع مسئول هناك.. «فيه امتحان فى لغات.. وترنسليت مقـالات.. والعـربى ده بالذات.. عـايز طوارىء حـرب». ضحكت من تجربته هذه فعندما استمع إلى الأخبار من هذه الإذاعة يخـيـل إلىّ أننـى اسـتـمع إلى بيـانات عن حـرب من طريقـتـهـم فى الإلقـاء». ويشـتـاق عـلاء إلى أرض الوطن والى مـدينة الإسكـندرية.. «أصحابى جميعاً وحشونى.. هل هنت عليهم فنسيونى.. أنا باق عليكم بـابقـونى.. فى بال النـسـمـة البـحـرية..» وعلى ظهـر الكتـاب يكتب علاء عن فضل بيروم التونسى عليه..

«أسأل يابيرم عن خبرك.. تلميذ على دكة فضلك.. أكل وشارب من طبـعك.. فى كل بيت يتـرص جديد». وقـد أضـافت الفنانة ليلى

خليل على كتـاب الأزجـال هـذا من رسـومـاتهـا على الغـلاف ومع الأزجـال تعـبـيـرات سـاخـرة بريـشـتـهـا الرشـيـقـة . . ولأن عـلاء من الإسكندرية فالكتاب مطبوع هناك وله تسعة كتب تحت الطبع ربما تكون بنفس متعة هذا الكتاب . . وتحية لأبناء الثغر .

من عام ١٩٩٦

على رأى المثل

• ياما جاب الغراب لأمه

من وقت لآخر أحب أن أقرأ ما جمعه الباحثون العظماء فى بلدنا عن الأمثال الشعبية فى كتب موسوعية أو دراسية، ليس فقط لأنها مسلية ومريحة للنفس، بل لأنها تشهد على أزمان مختلفة فى وطننا، أما كتاب «د. عزة عزت» عن «الشخصية المصرية فى الأمثال الشعبية» فعندما أقرأ فيه أجد أننى أجلس مع أمى. ربما لشرحها البسيط مع دراسة متعمقة فى الشخصية المصرية، وربما لأن معظم ما جمعته فى بحثها من أمثال كانت ترددها أمى.. فى مجال الفكاهة والسخرية تقول عزة: «حب المصرى للفكاهة وخفة روحه أمر لا خلاف عليه وهما دافعه للسخرية اللاذعة والتهكم حتى فى ساعات الجد والألم، فهو يسخر من نفسه ومما يصيبه، وكأنه يستعلى على المحن بأسلوب يبدو للعامة وكأنه وسيلة إضحاك، وإن انطوى على تلميحات لاذعة تسخر من الحياة ومن سلوك المجتمع وتنتقده».

ومن أمثله الفكاهة مثل الغراب الذى يخطف أى شىء حتى الذى لا ينفعه، كانت تردده أمى إذا أحضر لها أحد إخوتى شيئاً غير مفيد، وإذا لاحظت أمى أحدهم يقوم بخدمة لأحد ولا يقوم بها للبيت كانت تقول: «زى القرع يمد لبره» وهذا المثل أوردته عزة ضمن الأمثلة الشعبية التى تدل على اليأس، وأشهرها ما قاله سعد باشا ومازال يتردد: «سعد باشا قال مفيش فايدة»، وعندما تزوج أخ لى بأمريكية

قـالت أمي: «ما حـد بيـجي من الغـرب يسـر القلب». وهو مثل في الكتاب.

وعن التطاول على الإنسان المصري والناتج أيضاً عن عدم تقدير الغير له، وعدم معرفتهم بأقدارهم يقول المثل: «سكتنا له دخل بحماره»، وتكون السخرية المصرية أشد ما يمكن حينما يتفكه المصري على الحمق والحمقى ومن لا يحسنون التصرف، ومعظم ما كتبته عزة عزت من هذه الأمثال كنت أسمعها من أمي.. «من قل عقله تعبته رجليه» «الحاجة في السوق تقول.. نيني.. نيني فين الخايب ييجي يشتريني». وهذا المثل كانت تقوله أمي لمن يشترى لها الخضار ولا يعجبها!!

ومن هذه الأمثال عن الحمقى «قالوا تعرف الهايف بإيه؟ قال بكلامه، وتعرف التقيل بإيه قال بسؤاله» «يدلقوا القهوة من عماهم ويقولوا خير من الله جاهم». «عمشة تحفف مجنونة وتقول لها حواجبك سود ومقرونة» وقد سمعت هذا المثل الأخير من أمي تعليقاً على سيدتين من العائلة كانتا في جلسة تمدح كل منهما الأخرى بما ليس فيها!

• **زي الطبل.. صوت عالي وجوف خالي**

يسخر المصري من التكبر الكاذب والزهو بالمظاهر، وكما تقول الباحثة أن سخرية المصري من المتكبرين بلا داع تبدو أشد أنواع السخرية وأكثرها اقتراباً من الفكاهة لجمعها بين الأضداد والمتناقضات في الأمور، ومن هذه الأمثلة ما كانت تقوله أمي ووجدته

فى كـتـاب د. عـزة «من بره هللا هللا ومن جـوه يعلم الله».. «زى شحات الترك جعان ويقول مش لازم».. «زى براغيت القنطرة عرى وزنطرة».. ومن الأمثلة الكثيرة التى كتبتها الباحثة فى كتابها عن السخرية من العمل غير الجدى كانت تقوله أمى: «البقرة بتولد والطور بيحزق ليه؟، قال: أهو تحميل جمايل» وكما يتضرر المصرى من الشماتة خصوصاً شماتة الأعداء تذكرت ما كانت تقوله أمى بقراءته فى الأمثال التى وردت فى هذا الصدد: «إيش حدا فيما بدا ياللى كلامك ضرنى؟ منين شمت الناس ومنين صالحتنى؟» وكما كانت تقول: «يابخت من بكانى وبكى علي ولا ضحكنى وضحك الناس عليّ». وكانت الأمثال الشعبية أيضاً تشفى أمى من الشماتة والشماتين وكما ورد فى الكتاب: «كله سلف ودين حتى المشى على الرجلين»، «لا تعايرنى وأعايرك.. الهم طايلنى وطايلك».

• تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها

هذا المثل ضمن أمثلة سردتها عزة فى كتابها عن السمة الثانية التى كتبت عنها الخاصة بالشخصية المصرية، وهى سمة التدين، فالمصرى فى كل عصور تاريخه القديم والحديث متدين، الدين ملجأه الأول والأخير إلى جانب الفكاهة فى مواجهة ما يعترضه من صعاب وما يجابهه من قهر وظلم من حكامه أو مستعمريه، ومن ظروف فقره واحتياجه أو حتى مواجهة ما يصادفه من أمور غيبية لا يعرف مبرراً لها، ولا يردها عنه إلا الإيمان والصبر، ويؤمن المصرى بانتصار الخير والحق فى النهاية مهما طال المدى، وذلك نابع من إيمانه بعدالة

السماء أو عدالة الإله، ويعتبر المصرى أن النصر والستر وتدبير الأمور وعلم الغيب والقدرة على الانتقام من عند الله فيعتمد عليه فى هذه الأمور وإن لم يخل المثل من دعوة للعمل والسعى خاصة فى مجال الرزق مثل: «اسعى ياعبد وأنا أسعى معاك».. والمصرى يؤمن بأن المقدر والمكتوب له سيراه: «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين» ومع ذلك يلوم المثل المصرى من يخطىء ويتصرف بحمق ثم يدعى أن ذلك قدره وما كتب عليه. يسخر المثل منه: «يفتح عينه للدبان ويقول دا قضا الرحمن» كانت أمى تقول يفتح فمه.

• قيراط بخت ولا فدان شطارة

هذا المثل يدل على أن الإيمان بالحظ والبخت هو الذى جعل المصرى مازال متمسكاً بالكثير من الأمثال التى تؤكد جانب الحظ وتغلبه على الاجتهاد والعمل، وعن مفهوم الحظ الأهوج لدى المصريين وأنه سريع وغير متأن يمكن أن يرفع الشخص من أسفل إلى أعلى بدون منطق أو مبرر تعرف الأمثال الحظ بأنه: «خبطة حظ.. أو ضربة حظ» «ساعة الحظ ما تتعوضش»، أي لا تأتى مرة أخرى، كما ترى الأمثال أنه لا مفر لإنسان من بخته أو حظه خصوصاً إذا كان تعيساً.. «قليل البخت يلاقى العظم فى الكرشة» «له فى كل خرابة عفريت» ويحاول المثل أن يصبر الإنسان على كل مصاب واعداً بما هو أفضل: «ما بعد الضيق إلا الفرج» كما يصف المثل الشعبى الإنسان غير الراضى بالبطران و المتبطر علي النعمة: «البطران عليه قطران» كانت أمى تقول: «البطران عيشته قطران».

والصبر وسيلة المصرى بعد الرضا والتسليم، ويستمد قوته من الصبر والاحتمال من إيمانه وهو يربط دائماً بين الصبر والإيمان: «الصبر مفتاح الفرج».

«اللى يصبر علي المر لابد يدوق الشهد» وفى تبدل الأحوال وفى ظهور طبقات طفيلية محدثة نتيجة للتقلب غير المبرر نجد الأمثال الساخرة من محدثى النعمة: «الواطى لما يعلى أدعو له بثبات العقل».

جبناك ياحكومة تحمينا.. حميتى النار وكوتينا.

إننا لا نجد كثيراً من الأمثال الشعبية التى تواجه الحكومة هكذا بصراحة، فالمصرى الذى يحترم السلطة فى العلن يسخر منها فى السر، فى أمثاله الشعبية أو بالنكتة، الاحترام والولاء الظاهرى للسلطة أو للغير قد أوصل المصرى المهذب إلى حد النفاق، والأمثال الشعبية تستنكر النفاق ومنها: «فى الوش مراية وفى القفا سلاية» «بوس الأيادى ضحك على الدقون».

● القلب له أحكام

مثل من الأمثال الكثيرة عن الحب، فكما يعتز المصرى بأصله وبأصول من يرتبط بهم مهما كانت المتغيرات الاجتماعية يقول: «عن الأصل دور» فالحب له مكانة فى نفسه، وكذلك تبادل الحب: «الرجل تدب مطرح ما تحب» «من حبنا حبناه وصار متاعنا متاعه ومن كرهنا كرهناه يحرم علينا اجتماعه» فالحب هو محور حياة المصرى كعنصر مكمل لتدينه وطيبته وكمحرك لحياته الاجتماعية والأسرية، فالزواج مهم فى حياة المصرى والمثل يقول: «يابخت من وفق راسين

فى الحلال» والأمثلة كثيرة عن تحبيذ الزواج، أما إذا فشل أو كان غير مناسب فالمثل الشعبى هو خلاصة الحكمة المقطرة يقول: «العتروسة أول أسبوع فانوس منور وتانى أسبوع قرد مصور»، «العزوبية ولا الجوازة الردية».

• اعمل خير وارميه البحر

من الأمثلة الشعبية التى اختارتها الباحثة لتبين طيبة المصرى وحبه للعمل الطيب وكراهيته للشر ومنها «سلامة الإنسان فى حلاوة اللسان» وأمثال قليلة تحذر من فعل الخير فيمن لا يستحقونه: «اتق شر من أحسنت إليه» وأمثلة تدل على حب المصرى للخير وفعله ونبذه للشر: «أبعد عن الشر وغنى له».. «يا فاحت البير ومغطيه لابد من وقوعك فيه».. ويأتى الغراب بمثل فى أعمال الشر: «قالوا للغراب ليه بتسرق الصابون؟ قال الأزية طبع».

• الله جميل يحب الجمال

هذا مثل ضمن أمثلة شعبية متنوعة ومازلت متداولة عن حب المصرى للجمال.. أما عن سخريته من الجمال الظاهرى البعيد عن النفس والطبع فيقول المثل: «إيش تعمل الماشطة فى الوش العكر» وعن نظرة المصرى للقبح على أنه فأل سيئ: «يغور الشهد من وش القرد».. «وشها يقطع الخميرة من البيت» وعن السخرية ممن لا يتقنون عملهم: «ما كل من صف الصوانى قال أنا حلوانى» ويسخر من الجهلاء: «ما يعرف الألف من كوز الذرة» «هبلة ومسكوها طبلة» «نقول طور يقول أحلبوه» وقد أطلق المصرى الكثير من الأمثال التى

تعبر عن ذكائه وفهلوته: «يطلع زى الشعرة من العجين» «يفهمها وهى طايرة» ويسخر من الذين يؤدون العمل بعد فوات الأوان «موت ياحمار على ما ييجى لك العليق» أما عن التعجل فى العمل والحرص على الوقت يقول المثل: «اطرق الحديد وهو ساخن» «حلاوتها فى حموتها» وبعض الأمثلة تفضل التأنى وتسخر من المتعجلين: «امشى سنة ولا تخطى قنا».. «كل تأخيرة وفيها خيرة».

عندما أقرأ فى الكتاب الشيق: «الشخصية المصرية فى الأمثال الشعبية» أقدر جهد الدكتورة الأستاذة عزة عزت فى جمع هذه الأمثال وصدقها في الاستعانة بأبحاث وكتب من سبقوها فى هذا المجال خصوصاً الدكتور سيد عويس كما تقول عنه أبو الاجتماعيين وشيخهم وأشكرها بتحية خاصة أننى أعيش مع أمى فى كتابها هذا، أتذكر سخرية أمى اللاذعة التى كانت تستعين فيها بالأمثال الشعبية حتى فى أصعب الظروف التى مررنا بها معاً، ابتسم.. أضحك.. وأترحم عليها.

من عام ٢٠٠١

يا ألمانيا.. يا..

• أوراق قديمة

فى مطار برلين الشرقية لم أشعر بالغربة، فقد كانت المرة الثالثة التى أذهب فيها إلى هناك، المرة الأولى كانت فى أواخر الستينيات وقت كان التبادل الثقافى بين مصر والدول الأوروبية الشرقية أو الاشتراكية على الأصح، وكانت منحة تدريبية فى الصحافة بين المعهد العالمى للصحافة ونقابة الصحفيين. كانت وقتها ألمانيا الشرقية أو الديمقراطية مازالت تبنى نفسها بعد خراب الحرب العالمية الثانية، وشاهدت ما يفعله الألمان للنهوض بمدنهم اجتماعياً وتعميرياً وصناعياً وثقافياً وفنياً.. كان وقتها الشباب يتطلعون إلى حياة أفضل فى ظل الاشتراكية.. وكانت المرة الثانية لحضور مؤتمر للاحتفال بمرور أعوام لا أتذكرها تماماً على إنشاء المعهد العالمى للصحافة. أما المرة الثالثة فكانت دعوة مؤتمر لصحفيات من قارتى آسيا وأفريقيا. لم أشعر بغربة فى تلك الزيارة الثالثة، بل لمْ أطلب أن ينتظرنى أحد فى المطار، وبسهولة توجهت إلى سيارة أجرة وأخبرت السائق عن العنوان، وشعرت بنوع من الألفة مع الأماكن والطرق والناس. ألفة قريبة من الحب والإعجاب.

كنت فى تلك الرحلة شاهدة على نهاية عصر ألمانيا الديمقراطية. لقد كنت أتعجب من حكاية تقسيم ألمانيا، الألمان هم الألمان، دماؤهم واحدة، جنسهم واحد، لغتهم واحدة، لكن كانت أفكارهم مختلفة،

لقد عمل العالم بعد الحرب العالمية الثانية على تقسيم ألمانيا حتى يضعف الألمان. عمل العالم على تقسيم أفكارهم وطريقة معيشتهم حتى يحاربوا بعضهم بعضاً ولا يحاربوا العالم!! الجانب الشرقى يتبع الفكر الاشتراكى، يتبع أفكار وأحكام الاتحاد السوفييتى «سابقاً» والجانب الغربى يتبع الفكر الرأسمالى وأفكار ومعيشة الرأسمالية.

وكان الرمز الذى يفصل بين الألمانيتين هو سور برلين، حيث قسمت برلين إلى جزئين، جزء يتبع الجانب الغربى والآخر الشرقى. وعلى الرغم من أن المدينة تقع وسط الجانب الشرقى، كان السور رمزاً مانعاً للحرية بالنسبة للألمان الشرقيين. فكان الألمان الغربيون يعبرون السور بحرية إلى برلين الشرقية يقضون أوقاتاً يستمتعون بفن الأوبرا العظيم والمسارح والطعام الرخيص في المطاعم أو يقضون أياماً فى فنادقها يزورون أهلهم هناك، كانت لهم حرية التحرك، أما الشرقيون فممنوع مرورهم عبر ذلك السور لأنهم إذا عبروا لا يعودون إلى الجانب الشرقي، كان الفرق شاسعاً بين الحياتين!

فليس غريباً أن يشارك شباب ألمانيا الشرقية فيما بعد بهدم السور المانع للحرية والرقص على أنقاضه.

فى المرات التى ذهبت فيها إلى ألمانيا الشرقية كان مسموحاً للأجانب الزائرين أو المقيمين فيها أن يعبروا ذلك السور إلى برلين الغربية، ثم إلى بلاد الغربية ببطاقة الإقامة أو جواز السفر، وعندما عبرت السور وشاهدت برلين الغربية وناسها الأثرياء والبضائع من كل أنحاء العالم والصخب فى المقاهى، شعرت إننى أمام أسرة كبيرة عريقة بعضهم أثرياء وبعضهم متوسطى الحال وبعضهم فقراء، وكل

منهم تكونت أفكاره ومبادئه، وكل منهم يجُد حياته أفضل من الآخر. كانت سنوات تفصل بين زياراتى الثلاث لألمانيا الشرقية، وفى كل مرة كنت أجد تجديدات فى العمران والحياة الاجتماعية، أشياء مبهرة.

فى المرة الثالثة شاهدت بداية نهاية العصر الاشتراكى لألمانيا الديمقراطية، فقد شاهدت لأول مرّة شباباً ثائراً على كل شيء وعلى النفوذ الروسى، كانت بداية التذمرّ، وقد قال لى الكبار إنهم الأطفال الذين ولدوا فى الأمان وتربوا فى الأمان بعد الحرب التى دمّرت ألمانيا، وبعيداً عن برلين والذكريات الفنية والثقافية وعنْ الرحلات الترفيهية والمشتروات فى غربها، كانت زياراتى فى رحلات إلى جنوب البلاد الشرقية وشمالها بلاد فوق جبال، وبلاد فى أحضان جبال.. أحببت المدن القديمة بمبانيها العريقة والقصور القديمة ذات الحدائق الشاسعة.

• رمسيس..يا..

أفهم شعور رمسيس فنان الكاريكاتير والجملة الساخرة، فى حب ألمانيا، فقد وقعت فى حبها من قبل وإذا كانت زياراتى لألمانيا الشرقية، وزيارات رمسيس للغربية إلا أنهم أولاً وأخيراً ألمان، وربما تفكك الاتحاد السوفييتى جعلهم يتوحدون، أحببت ألمانيا والألمان خلال ثلاث رحلات، فلابد أن يعشقها رمسيس خلال رحلاته الخمس والعشرين ومن حكاياته يقول:

«عندما أحصيت عدد الأيام التى قضيتها فى بلاد «اللاغلطة»

كما أطلقت عليها وصلت إلى ما يساوى عاماً كاملاً مقسم على خمس وعشرين مرة دخول. منها رحلات طالت إلى أسبوعين، ومنها رحلات سندوتشية سريعة ٤٨ ساعة فقط حسب أيام المعرض الذى أكلف بالتواجد فيه».

النجم السوبر، هكذا عرف رمسيس خلال رحلاته مع وزارة السياحة لحضور اشتراكها فى المعارض والمهرجانات العالمية خصوصاً التى تقام فى ألمانيا، والحقيبة الثقيلة التى يأخذها معه المليئة بأوراق من ورق البردى، عبارة عن رسومات فرعونية لأقنعة كان يستخدمها ملوك وملكات من الفراعنة ثم يرسم وجوه الزائرين إلى المعرض المصرى تحت هذه الأقنعة، وقد جاءت فكرة الأقنعة الفرعونية لرمسيس بعد سنوات طويلة من رسم وجوه الزوار على ورق أبيض وكانوا يحبون أن يرسمهم بأزياء فرعونية.

جمع رمسيس رحلاته وحكاياته فى كتاب «رمسيس.. يا.. رحلات وحكايات» الذى صدر عن الهيئة العامة للكتاب فى سلسلة مكتبة الأسرة، تغلب على الكتاب رحلاته إلى ألمانيا. فإذا كان كتب عن إيطاليا وإنجلترا وجنوب أفريقيا والكويت وروسيا فإن عشقه الحقيقى لألمانيا فنجده يقول فى كتابه:

«ها هى الأيام تجرى بسرعة، وفى البلاد الحلوة الرايقة لا تشعر بها، فأنت هناك تتنفس حياة وحيوية، وكل ما تراه هو متعة للنفس والقلب قبل العين وما تسمعه فى كل مكان هو درس للالتزام والسلوك الإنسانى المتحضر، لا كلمة نابية ولا وجوه مكشرة تقطع

الخميرة من البيت ، بل الكل يبتسم ، الكل متفائل ، لم أر واحداً وواحدة «بيشلقوا» لبعض فى الشارع ، ولم أر واحداً وواحدة «ضاربين بوز» لبعض . أو على وشهم غضب ربنا . ولم أر اثنين واقفين بيتخانقوا فى الشارع ونازلين طحن فى بعض ، ورغم الزحمة الشديدة فى مهرجان «كيل ڤوخ» أو أسبوع «كيل» الذى كان يحضره ربع مليون يومياً ، إلا إننى لم أشاهد خناقة واحدة ، ناس رايقة وشبعانة وفى داخلهم سلام وتوازن نفسى . وارجعوا إلى طريقة التربية الأولى فى البيت والمدرسة ، لأنه من هناك تكون البداية ، وبالرغم من أن هناك فقراء كثيرين ، ونسبتهم عالية فى ألمانيا ، إلا أنك لا تستطيع أن تميزهم أو تعرفهم ، لا من ملابسهم ولا من سلوكهم ولا من سياراتهم ، ولا من بيوتهم فالكل هناك متشابهون تقريباً ومتقاربون فى نمط حياتهم وسلوكهم الشخصى والإنسانى بعيداً عن مستواهم المالى» .

• أعود إلى أوراقى القديمة

فأتذكر الألمان على الجانب الآخر ، حيث كان مقسماً . أتذكر ابتسامة البائعة فى المحل . . والعاملة فى المطبخ هى نفس ابتسامة الموظفة الكبيرة فى أى موقع ، أتذكر البيوت البسيطة التى دخلتها ، الفوارق قليلة بين بيت المديرة وبين الطباخة . قلت وقتها إنها الاشتراكية التى تقرب الطبقات فى المجتمع من بعضها ، لكن الحقيقة هى طبيعة الشعب الألمانى سواء تربى فى الجانب الشرقى أو الغربى ، الاشتراكى أو الرأسمالى وكما كتب رمسيس عن رأى صديق مصرى

يعيش فى ألمانيا :

«الألمان لا يعرفون الفوارق الاجتماعية، هنا الكل يحبك ويحترمك ويتعاملون معك كائن بشرى هام جداً، لا يهمهم لونك أو ديانتك أو ملابسك. الكل بسيط وحر فى حياته وملبسه».

• رمسيس.. ما هو اسمك الحقيقى؟!

مهرجانات كثيرة، معارض عالمية اشترك فيها رمسيس خصوصاً فى ألمانيا.. يحكى عنها :

«أجلس فى مكانى فى الجناح المصرى كالكاتب المصرى القديم، ومنذ العاشرة صباحاً، وحتى السادسة موعد إغلاق المعرض أجلس لأرسم ضيوف الجناح المصرى على ورق البردى المعد مسبقاً بقناعى توت عنخ آمون ونفرتيتى، ومع صيحات الإعجاب وتصفيق الطابور الطويل الممتد أمامى أنسى الإرهاق والتعب وأظل أرسم. وتحت كل صورة أكتب اسم مصر.. ويا حبيبتى يامصر».

وأعتقد البعض أن رمسيس يكتب اسم «رمسيس» كنوع من الوجاهة الفرعونية لتكملة الصورة، وكان تعليق «مايكل جاكسون» أشهرها، فقد ذهب إلى زيارة المعرض العلمى فى مهرجان مدينة «كيل» ليشاهد أيضاً مهرجان كرة القدم الأوروبى فى ذلك العام، وناداه رمسيس بطريقته الظريفة، نظر مايكل جاكسون إلى الرسومات أمام رمسيس وسأله «ماذا تفعل هنا؟ وما هذه الرسوم الفرعونية التى أحبها؟» ولما فهم عمل رمسيس أختار قناعاً ليرسم عليه، وفى دقائق رسمه رمسيس وناوله الصورة فنظر إليها معجباً وقال له.. جميل أن توقع باسم رمسيس لكن ما هو أسمك

الحقيقى؟! ولم يصدق إنه اسمه الحقيقى..

ويحرص رمسيس فى كل زيارته لألمانيا أن يذكر حبه لها:

«مازلت أكتب وأرسم لكم من ألمانيا وأرجو ألا تكنوا قد زهقتهم من انبهارى وتحمسى الشديد للحياة المنضبطة وللحرية الشديدة التى تجرى فى دم الألمانى. لدرجة أنك تظن للوهلة الأولى أنهم شعب لا يبتسم أبداً ولا يعرف الهزار.. لكنك تفاجأ بأن الألمان ساعة المرح يتحولون إلى مجانين، لكن جنان مدروس أيضاً، جنان شعاره «اسعد نفسك واسعد الآخرين» وليس «اسعد نفسك وطظ فى الآخرين» كما تعودنا أحياناً.

لمْ أزهق من انبهار رمسيس بألمانيا والألمان.. ربما لأنى أشترك معه فى هذا الشعور وتخيلت نفسى على الجانب الشرقى لمدينة برلين ورمسيس على الجانب الغربى منها نشترك فى تحطيم السور العظيم لأننا أحببنا الألمان فى الجانبين.

من عام ٢٠٠٠

الجزء الرابع

أنا..
والربيع ونهاية العام



همسات فى عيد الربيع

عندما يأتى عيد الربيع الآن، يأتى إلى أذنى صوت فيروز عن كل الأصوات التى تعجبنى، يأتينى صوتها شجياً، كأنه يخرج من بين رائحة الزهور والشجر المورق حديثاً، صوتها معبق بشجن وهى تغنى للذين رحلوا أو على حسب قولها «اللى راحوا».

أتذكر تلك الأيام البعيدة فى أعياد الربيع، ونحن فى أول عمر الشباب، فى سنوات الدراسة الجامعية، ومعلمنا يعلمنا الحب، حب الناس جميعاً، وكانت فرصة له فى عيد الربيع ليعطينا الدرس عملياً، كان يجمعنا فى صباحه الباكر ويشترى وروداً، ونذهب إلى حدائق القناطر الخيرية، لنوزع الورد على الناس المحتفلين، وبعبارة نقولها لكل من نعطيه وردة، كل ربيع وأنت طيب وأنت طيبة، ويفرح بنا الناس ويستقبلون حبنا بحب وتمنياتنا بتمنيات.

كان معلمنا يقول لنا دعوا الطبيعة تحتضنكم فهى المعلم الأول للحب والجمال، وكان يلقبنا بصغاره أحياناً، وبحوارييه أحياناً، وبمشاكله أحيانا، القابا كثيرة أطلقها علينا، معلمنا رحل مع «اللى راحوا».

اتخيل مجموعة من الشابات والشبان الأن وهم يحملون الورد ويذهبون إلى حدائق القناطر أو إلى أية حديقة يجتمع فيها الناس يحتفلون بعيد الربيع، أعتقد أن الناس الآن سنقابل حبهم بتعجب! ولن يأخذوا منهم الورد خوفاً مما يسمعونه ويقرءونه عن الذين

يضعون فى الورد مساحيق مخدرة ليسرقوا، أو يضعوا فيها سموماً بيضاء ليضمنوا لتجارتهم السوداء مدمنين.. لم يعد أحد يثق فى الأغراب خصوصا إذا أظهروا الحب!

أعود إلى عبق الورد وزهور الاشجار وصوت فيروز الشجى الملئ بالشجن وهى تنادى أو تناجى «اللى راحوا» وأتذكر أعياد الربيع فى السنين «اللى راحت» وابتسامة أمى وأنا أهديها وردة حمراء وبيضة من الشيكولاتة، تفرح بهما مثل طفلة عجوز. وجدت نفسى أهمس لنفسى.: «وحشتينى ياأمى».. وأتذكر لقائى مع الاصدقاء والصديقات عندما بدأنا نخطو أولى خطواتنا فى طريق عملنا، ونذهب إلى مكان ملئ بالشجر والزهور أو بجانب النيل أو البحر لنحتضن الطبيعة ونحتفل بعيدها.. تفرق جمعنا القديم، وكل أصبح له ولها مجموعة جديدة تبعاً لأماكن أعمالهم واعمالهن، وزوجاتهم وأزواجهن .. الذين أصبحوا وأصبحن فى مواقع هامة، والذين اختفوا من الحياة العامة و.. «اللى راحوا».

وجدت نفسى أهمس لنفسى، هل مازالوا يحتفلون؟! هل مازالوا يتذكرون؟!

تعلمنا من الطبيعة أن الأشياء فى تغير دائم، الشجرة هى الشجرة لكن أوراقها تتغير دائما. والنهر هو النهر لكنك لاتنزل إلى مياه النهر مرتين، فهناك مياه تجرى دائماً أبداً.. هكذا قال فيلسوف قديم والناس أيضاً يتغيرون.

أعود إلى عيد الربيع وعبق الزهور والشجر المورق حديثاً، وصوت فيروز الشجى وهى تنادى أو تناجى «اللى راحوا» .. الاحتفال بهذا

العيد ليس ضرورة بل هو تعود، تعودت أن أحتفل بهذا العيد ربما هو العيد الوحيد الذى أحب أن أحتفل به، لأنه عيد لكل البشر، عيد من الطبيعة وللطبيعة، أحب أن أكون فيه مع الناس وسط الاشجار والورد. ذات عيد ربيع دعتنا صديقتى «نهاد» إلى قريتها الصغيرة فى الصعيد، وحتى لانضيع الصباح فى السفر ذهبنا فى ليلة العيد، ولم تكن القرية وصلت إليها الكهرباء، ولونا البيض على ضوء الشموع، ولم ننم ليلتها من الناموس، وكنا مع الفجر على شاطئ النيل، فقريتها أمامها شبة جزيرة مليئة بأشجار الفاكهة، جاءت إلينا رائحة زهورها، وكان الجو رمادياً، الصورة مثل الصور الكلاسيكية تظهر لى من لوحات الذاكرة، ووجدت نفسى أهمس لنفسى «وحشتينى يانهاد»..

وفى أوراق ذكرياتى مع عيد الربيع وجدت هذه الكلمات: الزرع ينضب إذا لم يرو بالماء، الجسد ينضب إذا لم يتغذ بالطعام، النفس تنضب إذا لم تتغذ بالجمال، والحب ينضب إذا لم يتغذ بحب، فمن الذى قال إن الحب عطاء فقط، العطاء ينضب إذا لم يتغذ بعطاء.

عيد ربيع عام ١٩٩١

صبحة مع زهرة

وسط رائحة عادم السيارات، وبارود المفرقعات، والرائحة الغامضة التى تصيب بنات المدارس بالدوخة، جاءت إلى نسمة هواء محملة برائحة عطرة جميلة، يعرفها أنفى جيداً يطرب لها تنفسى، يخفق لها قلبى، رائحة الربيع، يعلن لنا عن قدومه بعطر زهور الأشجار، ذهبت لمشاهدة مباهج الربيع بعيداً عن الجدران، والعاصمة المختنقة بالضوضاء، المصابة بالاكتئاب الأن. رحلة قصيرة إلى حدائق القناطر الخيرية، بالرغم من الإهمال وعدم العناية الكافية إلا أنها مازالت متنفسا لنا بحدائقها نصف الجرداء، عالجتها الطبيعة بدوائها الشافى، الربيع، وفى مكان وسط الحدائق معرض الزهور الذى تقيمه وزارة الرى كل ربيع هناك، شكرا للوزارة التى تحتفل بزائرنا الجميل كل عام. قالت واحدة من صحبتى إن حدائق القناطر تذكرنا بأيامنا الحلوة.

فكرت ماذا تعنى صديقتى بأيامنا الحلوة؟! هل هى عندما كنا أطفالاً لاندرى من الدنيا سوى الأمان فى حضن الوالدين وترابط الأسرة، وكل ما كنا ننظر إليه يدهشنا ويسعدنا!.. ماذا تعنى بأيامنا الحلوة ؟.. هل عندما كنا فى مطلع الشباب وتفتحت قلوبنا كما تتفتح زهور الاشجار وعرفنا الحب. وخفقات القلب، وكتبنا شعراً فى المجهول، ونادينا على القمر، وكنا نعيش فى أمان..!

ماذا تعنى صديقتى بأيامنا الحلوة؟ هل عندما تفتحت عقولنا فى نضوج الشباب وعرفنا أسرار من الحياة، وقيمة أن يعمل الانسان،

وأهمية أن يبحث عن الخير، ويتعلم من دروس الغير، ويفهم معنى الانتماء وحب الوطن والإنسان!.. كنا نعيش فى أمان بكل هذه المعانى الحلوة، لماذا نقول أيامنا الحلوة التى كانت؟ .. لماذا لا تكون الأن؟.. لماذا لاتكون دائما؟! «دع الزهور تتفتح».. عبارة قرأتها يوما، ربما كانت عنواناً لكتاب.

يا .. من يحمل شراً فى نفسه، خذ أجازة منه، وانظر إلى تفتح الحياة فى الربيع، انظر إلى جمال الطبيعة ستجد أنها خير، الخير هو القاعدة فى الطبيعة، والشر هو الاستثناء، كذلك الإنسان، الخير فى نفسه هو القاعدة، والشر هو الاستثناء، لكن بعض الناس يهملون الخير فى أنفسهم فتقوى بذور الشر فيهم.

نرتاح بالنظر إلى جمال الطبيعة، إلى الخير ونشعر باطمئنان، وكل شر وأى شر لايريحنا ونشعر بعدم الأمان والأكتئاب.. الجمال هو الخير، الجمال يطرد الشر من النفس، هكذا تعلمنا الطبيعة. وهكذا لابد أن يفعل الإنسان يجمل الحياة بالمعنى المادى والمعنوى.. إذا أردتم القضاء على الشر جملوا الحياة.

مررت بأحواض الزهور فى معرض القناطر، أشكال وألوان، ياسبحان الله كل هذا الجمال عندنا ولا نراه؟! واتذكر ما كتبه «جبران خليل جبران» على لسان زهرة:

«أنا ابنة العناصر التى حبل بها الشتاء وتمخض بها الربيع، عند الصباح اتعاون مع النسيم على إعلان مجئ النور، وفى المساء اشترك مع الطيور بوداعه. اتمايل فى السهول فأزينها، وأتنفس فى الهواء فأعطره، وأنظر إلى العلو دائماً كى أرى النور ولا أرى خيالى، وهذه حكمة لم يتعلمها الإنسان».

وأتذكـر كلمــاته عن الجـمــال: « يأيهــا الذين ضــاعـوا فى ليل التقولات وغرقوا فى لجج الأوهام، إن فى الجمال حقيقة نافية الريب، مـانعـة الشك، ونورا باهرا يقـيكـم ظلمـة البطل تأملوا يقظة الربيع ومجئ الـصبح، إن الجـمال نـصيب المتأملين، اصـغوا لأنغام الـطيور، وحفيف الأغصان وخرير الجدول، إن الجمال قسمة السامعين».

وأخيراً أصيح مع زهرة «تاجور» شاعر الحب والحكمة:

«تشق الزهرة الرضيع برعـمهـا فى الربيع ثم تصـيح.. أيها العالم أرجوك لاتجعل الذبول يطرق إليك»..

عيد ربيع عام ١٩٩٣

ترنيمة حب

يعلن الربيع عن قدومه بنسماته المعطرة برائحة زهور الشجر، تحيى النفس والبدن مثل مشاعر الحب كثيرون مثلى لا يطيقون الجدران عندما يأتى الربيع، أبحث عن حديقة. أبحث عن أشجار البرتقال والليمون، لاملأ رئتى برائحة زهورها أبحث عن معرض للزهور، لأغسل عينى بجمال ألوانها. نسمات الربيع المعبأة برائحة زهور الشجر تحيى النفس والبدن مثل مشاعر الحب. فى صور الحب الكلاسيكية نرى المحبين بين الأشجار والزهور. الحب يزدهر فى الربيع، يعشق الطبيعة مثل طفل يحب الانطلاق على الحشائش وبين الزهور. كانت الأساطير اليونانية تمثل الحب على صورة طفل جميل وعرفنا كيوبيد وهو يتسلل إلى الحدائق بسهامه المغموسة فى عطر الحب ليصيب بها الوحيدين ليلتفتوا إلى زملائهم فى الإنسانية الوحيدين ويجتمعوا بالحب ليصيب المحبين ليقوى حبهم ويجمع شملهم ولقد وجد اليونانيون قديما فى الحب عودة إلى حياة البراءة والخير، وكان المحبين يولدون من جديد وكأنهم يرون العالم للمرة الأولى. إننا نسمع دائما عبارة: «إننى بالحب ولدت من جديد» الإنسان يردهر بالحب كما تزدهر الطبيعة بالربيع وتولد من جديد.

وتصبح الحياة قاتمة إذا انعدم الحب إذا مات إذا ابتعد إذا تحول وقيل إن الحب مثل النبات يمكن أن يزدهر بعد زبولة.. ببعض السماد بالماء بالحنان بالعناية وبقدوم الربيع التشابه كبير بين الحب والنبات، كلاهما يحتاج للعناية ليزدهر ويعيش.

وقيل إن الحب مثل الطبيعة.. يأتى بالفرح. والحزن. بالأمل واليأس. بالأيام المبهجة والأيام الثقيلة مثل طبيعة الجو يوم حار. يوم بارد يوم معتدل يوم عاصف ويوم مطير الحب بكل مشاعرة المزدوجة والمتعددة، وهذا الرسم البيانى الذى يرسمه فى النفس فترتفع الخطوط يوما وتنخفض يوما وتعتدل يوما. طبيعة الحب مثل الكون الذى نعيش فيه.

وتصبح الحياة قاتمة إذا انعدم الحب. إذا أصبح مجرد سطور فى رواية نقرأها. أو فى فيلم نشاهده. أو.. فى كلمات أغنية نسمعها. ويصبح الحب قاتما إذا لم نعد نشعر به. لا.. فى سطر من رواية ولا فى مشهد من فيلم أو.. فى كلمة من أغنية.

بعض الناس لايشعرون بكلمة الحب.. ولايستمتعون بمشاعر الحب. تماما مثل الذين يأتيهم الربيع ولايشعرون به. يأتى ويذهب مثل أى فصل من فصول السنة. مساكين هؤلاء الذين لايشعرون بالحب ولايفرحون بقدوم الربيع قال الفلاسفة القدماء ان الدلالة الحقيقية للحب فى حياتنا هى الكشف الفريد الذى نعرف منه بعض القيم فينا. وقالوا إن الحب يردنا إلى أصولنا ويعرفنا من نكون وفوق كل هذا يشعرنا بوجودنا. أنا أحب ومحبوب إذا.. فأنا موجود.

عيد ربيع عام ١٩٩٤

في نهاية العام اسأل نفسك..؟!

مع نهاية العام يفكر الفرد أحيانا في الاحداث التي مرت به خلاله ماذا اسعده.. وماذا اتعسه، من الذي اثرى حياته بالحب والرضا.. ومن الذي «عكنن» عليه حياته بالبغض والحرمان.. وأحياناً يسأل الفرد في ثورة على نفسه: «ما الذي يجعلك لاتعيش الحياة التي تريدها؟ هل السبب أحوالك المالية، أم طريقة عملك، أم عملك نفسه؟.. هل السبب شريكة حياتك أو.. شريك حياتك.. أم السبب أولا وأخيراً طريقة تفكيرك.. أي السبب هو عقلك؟!»

فعلا السبب هو عقلك أي طريقة تفكيرك، كثيرون يجدون أنهم يعيشون الحياة التي يريدونها تقريباً، وكثيرون يجدون لنهم لايعيشون الحياة التي يريدونها، وقليلون هم الذين يعيشون الحياة التي يريدونها تماماً، إذا تركنا جانباً الاعتقاد بأنه الحظ الجيد أو السيئ، سنجد أن طريقة تفكير الفرد هي التي تجعله متقدماً في حياته أو متأخراً فيها، يوجد نوعان من التفكير او الاعتقاد:

الأول منطقي، والثاني مبن على تجاربنا وعواطفنا التفكير أو الاعتقاد الثاني هو الأكثر تأثيراً علينا مثلا عندما تضيق الدنيا علينا بتصعيب الأشياء، وتسديد الطرق، نجد أن الذين يعيشون بتفكير سلبي يفسرون الأحداث بأن كل شئ خانق، معتم.. والحياة قاسية وغير عادلة.. أو يعتبرون أنهم سيئو الحظ، مثل هذه الأفكار تجعل الفرد في حزن ماساوي، ولايستطيع أن يساعد نفسه، بينما نجد

أصحاب التفكير الإيجابى يفكرون فى أسباب هذا الضيق الذى احتواهم ويعملون على التغلب عليه، ويبحثون عن عمل إيجابى يفتح الطرق المسدودة، للأسف الشديد التفكير السلبى يتعلمه الإنسان بسهولة، من نماذج جامدة متوارثة، مثلا يعتقد أنه يوجد طريق واحد لعمل أى شئ صح ، إذا فشل يعتقد انه فاشل فى كل شئ مع إنه توجد طرق كثيرة صح أيضا، مثل هذا الشخص يميل إلى تصنيف الناس إلى خيرين وأشرار، أصدقاء وأعداء، من التفكير السلبى إنه إذا حدث للفرد شئ جيد جداً، فلابد أن يتبعه شئ ردئ جداً.. مثل الضحك وقول اللهم اجعله خيراً، خوفاً من مصيبة تتبع الضحكات الحقيقية من القلب.

ويوجد من يخطئ ويركل الخطأ على شخص أخر، أو ظروف لا دخل له بها، وهذا التفكير السلبى يسبب نوعين من المشاكل ، فهو يمنع الفرد من تصحيح أخطائه، ويجعله فى عداوة مع الآخرين الذين يصب عليهم هذه الأخطاء، التفكير السلبى كثير في حياة الفرد، وكما تعلم عادات سلبية يمكنه أن يتعلم طرقا مختلفة فى رؤية الأشياء، مثلا لايصح أن يبنى الفرد خرافات غير منطقية حول كل حادث سلبى فى حياته، ربما يشعر الفرد بهزيمة أمام حدث أو شخص يعزه، لكن لايوجد داع لقوله إن الحياة ظلمته ، فكيف يواجه هذا الحدث السيئ أو .. كيف يتصرف هذا الشخص العزيز عليه هذا التصرف الردئ يحتاج الفرد إلى وقت لتدريب تفكيره ليجعل الأشياء المضايقة أقل مضايقة، لايصح أن يعمل قضية كبيرة إذا لم يوفق فى شئ أو.. مع شخص فى موقف أو حدث.. التفكير الإيجابى

طريق للتعامل مع الحياة بإيجابية ويدفع الفرد ليعيش الحياة التى يريدها ، فتغيير تفكيره يجعله يغير حياته .

التفكير الإيجابى يشفينا من النماذج الجامدة لرد افعالنا فى المواقف والأحداث ، ويسمح لنا بأن نكون أكثر ليونة فى المواقف الصعبة ، لنتعلم عادات التفكير الإيجابى ، فهى تساعدنا على مقابلة تحديات الحياة ،مفاجاتها بإيجابية حتى نستطيع أن نعيش أوقاتنا ، أسعد حالا ، ولنبدأ التدريب مع بداية العام الجديد .

سندريلا الحديثة..

فى الأيام الأخيرة من العام تزدحم فى الرأس أحداث العام، تصبح مثل عش النحل أو الدبابير، تزن فيها الأحداث العظيمة والحوادث الأليمة واحلام تحققت، وآمال تبددت. بعض الناس يشعرون بشئ مثل الشجن خصوصاً مع تراكم سحب الشتاء القاتمة. نبحث عن الضحكة الحقيقية وتأتى من فيلم قديم لأبطال الكوميديا فى الزمن القديم. نبحث عن قصة حب صافية.. ونجدها فى رواية كلاسيكية لأبطال الرومانسية فى الزمن القديم. الضحك الآن فى الكوميديات أصبح مريراً لسخريته من معيشتنا أو سوقياً ليجذب المشاهدين، وقصص الحب ذهب صفاؤها من مساوئ الحياة. وكان صناع الافلام فى العالم لم يجدوا فائدة من الأحلام الجميلة.. أو هذه الاحلام صدمت بالواقع الأليم فاتجهوا إلى أحلام الكوابيس فهذه هى التى تناسب حياة العالم الأن. لانقول دائما ما كان.. كان احسن فالعالم يتقدم لكن فى الاشياء المادية ويتأخر فى الأشياء المعنوية تماماً كما يستخدم الفرد قدراته العقلية والعضلية ويستغنى عن قدراته العاطفية، وعدم استخدام الشئ يضعفه ولاينميه وهكذا تضعف العواطف وتتأخر.. عندما حدثت صديقة عن زن الدبابير فى رأسى مع نهاية العام الذى مضى قالت: إننى حزينة على الحب فى الحياة زمان لكننا لابد أن نواكب العصر، ولانلتفت إلى تلك العواطف القديمة ولتكن فى أرشيف زمان. قالت إن سندريلا العصر الحديث غير سندريلا زمان. ضحكت وقالت:

«سندريللا الآن تلعب كارتيه ويمكن أن تسمم زوجة ابيها أو تقتلها بسكين المطبخ الذى تحبسها فيه ويعجب بها الرجل المغنى الذى كان الأمير زمان، يعجب بقوتها العضلية ويعتبر السباب الذى يخرج من فمها خفة دم، وبدلا من أن يبحث هو عن صاحبة فردة الحذاء الذى انخلع من قدمها وهى تجرى قبل أن تنكشف حقيقتها، تذهب هى إليه بفردة حذائها الأخرى وتضربه بها ليعطيها الضائعة «الحرامى» ويعجب بالأنثى القوية التى تبحث عن حقوقها وإن كانت فى فردة حذاء»..

ضحكت صديقتى وقالت: «فى طفولتنا تأثرنا بحكايات خيالية عاطفية مثل سندريللا وسنووايت.. الثلج الأبيض.. أو الاميرة الصغيرة والأقزام السبعة كما عرفناها. الأطفال الآن يتأثرون بحكايات مادية واقعية».

قالت سارحة: «هل تدرين أن الثلج الأبيض عمرها الأن خمسون عاماً، لقد ظهرت قصتها فى أواخر الثلاثينيات، ملايين البنات تمنين أن يكن فى جمال.. سنووايت... وغنين اغنيتها المشهورة «فى يوم ما سيأتى أميرى» كانت نقية، جميلة، ضعيفة، لاتعرف الاعتماد على نفسها. كانت نموذجاً لما يجب أن تكون عليه الأنثى فى ذلك الوقت.. تساءلت صديقتى: «ياترى ماذا تفعل الثلج الأبيض الأن؟ لقد وقعت فى الحب من أول نظرة مع أميرها ولم يتعارفا بما فيه الكفاية وتزوجا ياترى ماذا حدث لزواجهما بعد اكتشاف كل منهما للأخر؟»».

انقدت لخيالاتى وقلت: «لابد إنها انضمت لحركة تحرير المرأة فى الستينيات بعد أن وجدت متاعب مع أميرها، ونادت بحقوق المرأة

وأعتبرت أن انتظارها ضعف وعليها أن تناضل لانقاذ نفسها بدلاً من انتظار من ينقذها.. ونادت باهتمام الأباء بابنائهم ولبيوتهم فاين كان أبوها وقت عذبتها زوجته؟».. قالت لى صديقتى: «سندريلا الآن أكبر فى العمر من الثلج الأبيض وفى قصتها أيضاً لم يظهر دور للأب!..

قلت: «انتقدت النساء فى حركة تحرير المرأة قصة سندريللا وطالبن بعدم تداولها. لكن لست معهن، باعتبار أنها قصة من الأدب القديم تناسب ذلك العصر، ومازلنا نستمتع بها فى حكايات رقصات الباليه الكلاسيكية، كما نعيد قراءة القصص الرومانسية القديمة، ولتكن سندريللا الحديثة مختلفة بدون أن نلغى القديمة».. قالت صديقتى:

«انت تعترفين أن الحب والحياة الأن مختلفان عنهما زمان فلماذا تنتقدين القصص السينمائية الآن؟!».. قلت: «إذا كان العالم يعيش فى اضغاث احلام فلابد أن يجد شيئاً جميلاً يريحه من هذه الأضغاث، لكن الأفلام الحديثة فى معظمها تزيد من توتر الناس، نادراً ما نخرج من فيلم حديث ونشعر براحة وانتشاء وحب للحياة».. قالت: «هذه الأفلام تجعلنا نفكر».. قلت: «ربما لذلك نشعر باكتئاب».. قالت «إننا فى بدايات عام جديد يليق به التفاؤل»..

قلت: «نعم لابد أن نتفاءل، فالتفاؤل أمل يحمينا من شرور العالم.. وكل عام وانتم متفائلون»..

نهاية عام ١٩٨٨

أشجان...

الشجن شعور حزين.. حنين لذكرى ليس بها ألم فيهرب الانسان من تذكرها. شجون جمع شجن ونسمع كلمات مثل« حديث ذو شجون» .. وهو حديث عن ذكريات جميلة مضت بزمانها والشوق لها يثير الحزن النبيل عليها. أشجان جمع شجن أيضا أشجان كان اسم لفتاة عرفتها أثناء جولاتى الصحفية الأولى، تعجبت من اسمها، وتساءلت عن معناه مع الصديقات والأصدقاء وفهمناه لفظيا. ومع تجارب الحياة ونضوج العمر فهمناه شعوريا.. وعرفنا أشجان كثيرة ربما أهمها أشجان نهاية العام.

• عام بلا قناع

ذات ليلة من ليالى رأس السنة، وضعت على وجهها قناعاً متقن الصنع، بابتسامة فرحة وعينين فيهما لمعة سعادة، وشفتين تنطقان بأجمل التمنيات لكل من تقابلهم فى ذلك المساء.. فكرت.. الحمقى يطلبون حظا سعيداً، لتتمنى لهم هذا الحظ السعيد، والأذكياء يصنعون حظهم، لتبارك لهم هذا الانتصار، الجميع يبتسمون رغم إرادتهم. مثلها تماما، فالأقنعة مرسوم عليها الأبتسام.

وجدت قناع صاحبها فى تلك الليلة أفخم من قناعها. قال لها بدون مناسبة إن البنت المصرية معقدة وتظهر عقدها فى مثل هذه الاحتفالات. لم تكن كلماته حكمة، قد سبقه فى ترديدها مئات من الرجال، وهم مختبئون تحت أقنعة من التحرر والعبث بالكلمات.

صاحبها يرتدى قناعاً ويضحك من أقنعة الآخرين. وفكرت.. فى الليل عندما ننظر من مكان مرتفع على سرب من السيارات لانرى أشكالها وأنواعها. نرى فقط أضواء حمراء خلفها. كل سيارة بها فانوسان من اللون الأحمر لتعطى بهما إشارات، لتعلن عن وجودها لبقية السيارات لايوجد اختلاف بين السيارات من مكان مرتفع فى الظلام. لايوجد اختلاف بين الاشخاص تحت أقنعة متقنة الصنع.

تعودنا أن نرتدى فى المناسبات قناعاً، لكن بعض الأشخاص ينسون أقنعتهم بعد المناسبة أو يجدون أنهم أفضل وأحسن وهم مختفون تحت قناع... و... فكرت.. صاحبها نسى قناعه بإرادته منذ كان يرتديه فى مناسبة ما..و.. فى النفس البشرية أعماق وأغوار، وهى القريبة منه، لم تستطع معرفة أعماقه بسبب ذلك القناع. وهو لم يستطع أن يعرف أعماق نفسها لأنها فى مقابل قناعه ارتدت هى أيضا قناعا، دارت نظراتها فى مكان الاحتفال، تتأمل الأقنعة على وجوه الناس، هذه النظرات بلهاء.. ربما تخفى خلفها ذكاء. وهذه ابتسامة مرحة. ربما تخفى خلفها حزن ما.. وتتمايل الأقنعة بنشوة مصنوعة على نغمات الحب. والحب ينتهى بانتهاء اللحظات.

الأقنعة لا تعرف الحب فهو مرسوم فى تعبيراتها كالابتسامات والنظرات، ومعانى الحب الحلوة تبتذل فى كلمات، ويختلط الصدق بالكذب وتتوه الحقيقة تحت الاقنعة.

عندما دقت الساعة معلنة انتهاء العام أطفئت الشموع والأضواء وإختفت الأقنعة فى الظلام..سمعت ضحكات وسمعت بكاء وطرقعة قبلات.. واختفت كل الاصوات بارتفاع صوت الموسيقى

باللحن المميز لوداع العام وعندما أضيئت الأنوار.. سألها صاحبها: «ماذا تتمنين للعام الجديد» .. قالت «إن أراك بلا قناع»

• **الحظ أعور**

ذات ليلة من ليالى رأس السنة اجتمعنا، مجموعة متقاربة جرتنا أحاديثنا إلى أشجان لنتذكر ليالى وآياما، وحاول أحدنا أن يبعدنا عنها.. فقال إن الحظ مثل وجه إنسان يرى بعين واحدة، والشاطر أو المحظوظ هو الذى يأتى إلى هذا الوجه من ناحية العين التى يرى بها فيحظى من الحظ السعيد شيئا ..ضحكنا وقال آخر.. يعنى الحظ أعور؟!

تذكرت قصة من الأدب الشعبى الأفريقى وقلت.. أحيانا المحظوظ هو الذى يكون من ناحية العين التى لايرى بها وجه الحظ، وحكيت لهم جزءا من القصة، وهو حديث بين عصفورتين كانتا فوق سور بيت تراقبان امرأة تطحن القمح فى الفناء. كانت عصفورة تلتقط من حبوب القمح وتطير إلى السور لتأكلها، بينما الأخرى كلما نزلت لتلتقط حبا تهشها المرأة فلا تلتقط شيئا فسألت رفيقتها كيف تأخذ الحبوب من هذه المرأة؟! فقالت إنها تأخذ الحبوب الواقعة على الجانب الأيسر من الرحاية، لأن المرأة لاترى بعينها اليسرى، وكيف لم تلحظ هذا؟!

تحدثنا وتحاورنا، هل حقيقة الحظ أعور؟! وهل الحظ هو الذى ينظر إلينا فيعطينا مانريد وما لم نكن ننتظره؟! أم أننا نسرق الحظ الجيد أو ننقض عليه لنأخذه من الجهة التى لا يرانا منها؟! وقالت واحدة منا إن الحظ أعمى وليس أعور، ودخلت بنا فى منطقة المحظورات،

فتحدثنا عن الذين «وصلوا» إلى . . و . . إلى . . و . . إلى . . وهم دوننا علما وثقافة وفنا . . وتحسرنا على أيام كانت فيها الحياة واضحة والثقافة محترمة والقلوب صافية وطبقات الناس متقاربة، وفجأة نبهنا واحد منا ألا ننقاد إلى أشجان نهاية العام.

فانتقلنا إلى أحاديث مرحة لنستقبل العام الجديد بابتسامة.

• الأمل القوى..

ذات ليلة من ليالى رأس السنة قالت لحبيبها : «أعطينى أملاً . . أملاً قوياً . . فرحا . . لاتقل إنك لاتستطيع»

قال حبيبها : «الأمل إرادة قوية نابعة من أنفسنا لا يصح أن ننتظرها كلية من الأخرين».

قالت : «عندما نحب نجد الأمل يتراقص أمامنا ونطلبه ايضا من المحبوب».

قال : «أفصحى عن كلامك . . أى أمل تريدين؟»

قالت : «أن نستمر معا».

قال : «وماذا لو أوقفت الظروف مسيرتنا»

قالت : «الأمل القوى لاتؤثر فيه الظروف. لذلك أقول أعطنى أملاً قوياً. أملاً محتمل التحقيق».

قال : «ليس أقسى على النفس من أن تجد يوما أن الآمال التى وضعتها فى شخص ما لم تكن سوى أوهام».

قالت : «هذه آمال خائبة. مجرد خيالات وهمية. الأمل الذى أريده واقعيا مبدعاً نتحرك به نحو المستقبل فى ثقة وتصميم».

ولم يستطع أن يعطيها أملا . . ولم تستطع أن تستمر فى أوهام حب . . وحبيب.

فهرس الكتاب

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٩٣٥ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 7932 - 9